کان یاما کان

كَان يَا مَا كَان

محمد عبد النبي

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م



دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail . com

الغلاف: هبة حلمي
العناوين الداخلية، خطوط: محمود عاطف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٨/١٩٥٨٢
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 517 - 2

كان يا ما كان

قصص

محمد عبد النبي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد النبي، محمد

كَان يَا مَا كَان: قصص/ محمد عبد النبي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٨

ص؛ سم.

تدمك: ٢ ٥١٧ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيداع / ١٩٥٨٢ / ٢٠١٨

إلى

حكايتي الأولى،

وديدة إبراهيم،

أُمّي.

«الحياة نفسها هي أروع حكاية خرافية».

هانز كريستيان أندرسن

المحتويات


مدخل

يبدو أنني كنتُ شَــاردًا أو ثَمِلًا فلم أتبــيّن العنوان، لكن الباب الأمامي كان على هيئة غلاف كتاب، أو كان الغلاف الأمامي على هيئة بابٍ كبير، المهمُّ أنني فتحتُه ودخلــت. انغلقَ البابُ مِن خَلفي بصوتٍ كأنه ضحكة مكبوتة، فقلتُ: إنّه لن يُفتَح بعد ذلك أبدًا، ولستُ سجينًا رغم هذا، وكلُّ ما أحتاجُ إليه حَتَّى أجدَ طريقَ الخروج أن أستريح وأقرأ ثم أنام. تحسستُ مــا حولي فخمَّنتُ أنني في ممر، ثُمَّ اعتادت عينــاي النورَ الخفيض، فبانتْ فصولُ الكتاب موزعةً أمامي أبوابًا مُغلقة على جانبي الممر، لكل بابٍ شكله ولونه ومُثبّت عليه رقم. وقفتُ بين الأبواب تائهًا ثقيلَ البَدن لا أدري إلى أيّهــا أتوجَّه، وقبل أن أَتَذاكى وأقول شــيئًا من قبيل إنَّ تلك الأبواب هي فصول حياتي أو سنوات عمري، حَدَّثتني نفسي بأنَّ البلاغة غير مُستحبّة أمــام أبوابٍ موصدة في هذا الوقت من الليل. تذكّرت كِتابًا أو فيلمًا قديمًا كان اســمه «حكاية وراء كل باب»، فخفتُ قليلًا، ورَجَّحتُ أنني مخمور في مدينةٍ غريبة، وأنني جديدٌ عليها، لم أزل من غير صديقٍ مِن أهلها يسندُ ترنُّحي ويجيبُ أسئلتي، ولا بدَّ أنَّ هذا الكتاب هو الذي اشتريتُه نهارًا من

سوق الكتب القديمة، ثم دخلتُه لَيلًا غير مبالٍ بسُكْري، فاتَّضح أنه فندقٌ للغرباء. بدا الاحتمالُ معقولًا لكني لم أعثر على أي مفتاحٍ في جيوبي، وقلتُ لنَفسي إنني لا بدَّ أن أدخل أيَّ غرفة؛ لكي أقرأ الحكايةَ التي وراء بابها، فأنام وأحلم وأخرج. وقلتُ إنَّ الممر بارد وساكن ومُقبض، وإنني لن أجد طريق الخروج ما لم أجرّب كل غرفة مِن غُرَف هذا الفندق، محتضنًا في كل ليلة الحكاية المتروكة لي على الوسادة. وقلتُ إن عنوان هذا الكتاب هو فُندق الحكايات الخرافية، عَسَى أن يساعدني اختيار العنوان على الدخول في النوم ولو بثياب الخروج، واقتربتُ من أوّل الأبواب تَعِبًا وضَجِرًا مِن حديثي مَعَ نَفسي، فتحتُه مِن غير مشقّة، دخلتُ على أَمل الاهتداء إلى أوَّل الخَيط في حُلم الصَّفحة التالية.

أمثولة العميان الثلاثة

في أيّامه الأخيرة، حرصَ جدي على أن يجمعنا حوله كلما استطاع واستطعنا، وأن يعيد علينا بعضًا ممّا تَبقَّى في ذاكرته من حكايات ونوادر عاشت معه منذ طفولته وصباه، كأنما يستودعنا إرثه الوحيد. ويبدو أنَّه كان يُفضِّل بعض حكاياته القديمة أكثر مِن سواها، مِثل حكاية العِميان الثلاثة؛ إذ كان يرويها مرةً بعد أخرى، ربَّما دون أن ينتبه أنه كان يكرّرها كثيرًا.

على عكس شقيقيَّ الآخرَين، لم أكن أُبْدِي ضيقًا بذلك، وتسلَّيتُ بملاحظة الاختلافات الصغيرة التي كانت تطرأ على الحكاية نفسها في كل مرةٍ يحكيها لنا، وأن أسجّل في عقلي -بلا غرضٍ واضح- ما الذي يضيفه أو يحذفه، ومتى يضحك أو يصمت أو يخفض صوته على سبيل الإثارة، ومتى كان يبدو واضحًا أنَّه يستعين بخياله ليسد فجوات ذاكرته. كانت الحكاية عن ثلاثة أشقَّاء، يعيشون حياتهم مُهدّدين بالإصابة بالعَمى عند سنٍّ معينة، لأسبابٍ غامضة، لعلَّها وراثية، المهم أنها بدت قَدَرًا لا مهرب منه. كانت اللُّعبة، كالعادة في هذا النوع مِن الحكايات القديمة، في اختلاف تعامُل كل واحد من الثلاثة مع عَماه المحتوم.

الأخ الكبير، واسـمه هكـذا (كبيرون)، كان محاربًا بطبيعته، اشـترى الأراضي وبنى البيوت وتزوج النسـاء وأنجب البنين والبنات، وصارَ في كـبره موسرًا مُحسـنًا، وظلَّ طول عمره يقاوم شـبح الظلام الذي يزحف نحو عينيه. لم يوفّر حيلة ولا وسـيلة، ولم يبخل بجهدٍ ولا بمال، ولم يترك بابًا دون أن يطرقه، فلجأ للطب والوصفات والسِّـحر والدَّجل، اكتحلَ وقَطَّـر، وادَّخرَ نورَ عينيه بالابتعاد عن ضوء الشـمس وكل نورٍ سـاطع، تجنَّب القراءةَ والتطلَّع للغد، ورفضَ أن يتخيّل شـيئًا لا وجودَ له، فيرهقُ عينَ خياله بما لا يُطاق.

الأخ الصغير، واسمه هكذا (صغيرون)، كان نزقًا بطبيعته، بَدَّد وأنفق وسـافر واختبر، عرف النسـاء دونَ الزواج أو الذُّرية، واتخذ من كل بلد صاحبًـا ونسـيه قُبيلَ الرحيل. رجـع إلى أهله، قرب نهاية عمـره، مهدَّمًا وضاحـكًا، فأصبحَ مهرّج البلد وراويها. لم يهتم يومًا بضعف بصره، بل بـدا أحيانًا كأنه يتعجَّل لحظةَ عَماه، فلم يضع نظّارة ولا زار طبيبًا، وأرهقَ بصره بالنظر للقريب وللبعيد، واسـتنفده بكل طريقة ممكنة، فكان يقضي لياليه شاخصًا إلى نيران تتوهَّج في ذاكرته، حيث تحترق مدنُ أسفاره تحت شموسٍ بعيدة.

في بعـض الأحيان كان جدي يغفل عن ذِكر ما كان من أمر شـقيقهما الأوسط، واسمه هكذا (وسيطون). عندئذٍ أذكّره أنا به، مُلوثًا ببقعة شَماتةٍ

لا محل لها، ربَّما لأنني نبهتُه لنسـيانه. وكان يجيبني مسـتاءً، قائلًا إنَّ الأخ الأوسط كان شـخصًا عاديًّا، مثله مثل أغلب الناس، إنسان مستقيم وله عيوبـه، رب الأسرة، المواطن الصالح، ذخـيرة البلاد. ولعله لم يكن يعبر بنفس تلك المفردات.

كان طريقه وَسَطًا بين شـقيقيه في كل شيء، وفي مسألة النَّظر أيضًا، لم يُبالِغ في حماية عينيه، أو يسرف في تبديدهما. لم يقضِ عمره فارًّا من الظلام أو مُطاردًا له. في الوقت المناسب زارَ الطبيب، ثم وضعَ النظَّارة وقرأ بقدر ما اسـتطاع دونَ نهمٍ ولا تقتـير، حتَّى أنه أجالَ بصره في شـبابه، وعرفَ الـحُسـن والنظراتِ المشفَّرة، كما عرف فيما بعد بكاء الخشوع في صلواته. حتَّـى خياله كان يسـتعمله في حدود المعقول، فلم يشـطح قـط ويتطلَّع لما وراء غده أو بعد غده على الأكثر.

حتّـى الآن، وبعد رحيل جدي بسـنوات عديـدة، يلحّ عليَّ بين الحين والآخر سؤالٌ عن مغزى حكايته تلك، وأيضًا كلّما تعبتْ عيناي من السهر أو القراءة أو التعرّض للشاشات أتذكَّر الأشقاء الثلاثة، وأتساءل تُرى مَن أكون بينهم، لكنني لا ألحّ في التسـاؤل، كأنَّما أخشـى الإجابة. وسرعان ما أستعيد عدم اكتراثي، إذ أتذكَّر كيف كان جدي يختم حكايته، ضاحكًا ومغمـضَ العينين، بقوله إنه بصرف النظر عـن كل شيء، فإن كل واحد من العميان الثلاثة كان يدركه العَمَى عند بلوغه سنٍّ محددة، ينطفئ النور في نفس الموعد المقرر سلفًا، باليوم والساعة والدقيقة.

بالحجم الملكي

كنتُ مستلقيًا على الفراش الممدود في ساحة قصر ملك بلاد ليليبوت، عندما اقتربت كبرى وصيفات الملكة، ممسكة أمام فمها بوقًا واسع الفوّهة، وحدثتني عبره وقالت:

«سَوف يُسعِد جلالة الملكة أن تُدبِّر شيئًا يُسرّي عن ضيفها السيّد جاليفر».

عَلى قدر إلمامي بلغة أهل هذا البلد صِغار الحجم، قد يكون للفعل «يُسرِّي» معانٍ متباينة، قد تبدأ من تحريك الهواء قرب وجه أحدهم بمروحة من ريش، وقد لا تنتهي باصطحابه إلى نزهة خلوية طَلبًا لمتعٍ بريئة أو غير بريئة، فماذا تقصد على وجه التحديد تلك الملكة المُحتجبة في جناحها وراء الأبواب والحرس؟ لكن، وأيًّا كان المعنى المضمر في جملة الوصيفة، لا بدَّ أنَّ الملكة ترغبُ في التسلية على حسابي. تصنّعتُ البراءة، وسألتُ الوصيفة ذات الوجه الأسمر المتطاول مثل قناع بدائي بحجم تمرة: «عن أي نوعٍ مِن التسلية نتحدّث هُنا يا حُلوة؟».

ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ ماكرة وعسكت أسنانها ضوء الشمس،ثم أجابت: «إن ألف امرأةٍ مِن شَعبنا قد يعادلن في الفراش امرأةً مِن بلادكم، وبوسعنا إذا شئتَ الشروع في استدعائهنّ وإعدادهنّ على الفور».

منذ اليوم الأوَّل لنزولي ضيفًا عليهم، وأنا أشعرُ بعينَي الملكة ترصّداني أينما ذهبت، غير أنني لم أرها ولو مرةً واحدة. الملك حاضرٌ طيلة الوقت وفي كل موضع، حَتّى عندما يغيب، مثل الآن، في مكانٍ آخر. حاضرٌ بشخصه أو بصوره وتماثيله، حاضرٌ بالـحُجّاب والحرّاس والرُّسل والوزراء، وإن لم يأمـر ويَنهِ مباشرةً. لكنَّ حضوره المفرط غَيّبه عني، أبعده عن ذهني حَتى وأنا أسـمعُ حديثه، فكأنّه مُعتمٌ مهما لَعلَـع، وكأنّه أبكم مهما جَعجَع. أمَّا هي فحاضرة، في كل ركن وفي كل لحظة، ومن غير صور لها أو تماثيل. في جميع لمسات الضيافة وفي اختيار طعامي وشرابي، وفي الثياب الجديدة التي أشرفتْ بنفسها على تصميمها وحياكتها، فكأنني أراها وأسمع صوتها في أطراف المناديل وفي مياه طاسة غسل الوجه، فضلًا عن خدمها من الخصيان والجواري ممن لا ينقطعون عني ليلًا أو نهارًا، في انتظار تلبية إشاراتي وتحقيق أحلامي. وها هي كبيرتهنَّ، اسمها يصعب نطقه عليَّ، لكن قيل لي إن معناه الولود، تنتظر إجابتي على عَرضٍ فاحش تقدمت بها ربتها أخيرًا وقد أمنت الرقيب، بعد أن غادر الملك لمواجهة اضطراب عاجل على الحدود.

«وَلـمَ لا؟ فليكن غدًا، في نفس هذا الموعد، وفي نفس هذا الموضع، هكذا

تحت السماء المكشوفة وقرب هذه البُحيرة»، هكذا أجبتُ الوصيفة السمراء، فأسرعتْ تنقل الموافقة على تحضير المسرحية الإباحية لصالح الملكة. أتمنى لها أن تستمتع بمشاهدةٍ طَيبة مِن مخبئها الغامض، هذا إن لم تشرّفنا أخيرًا بظهورها. تركتهم يستعدون واستسلمتُ لخيالاتي مع كؤوسٍ من شرابهم الحارق وثمار من فواكههم المتفجرة بالعصائر الحلوة والمكتنزة بالأنسجة الطرية. ماذا تريد تلك المرأة الخفية؟ لعلّها تودّ أن تتصفّح سريعًا كتاب العمالقة الحَي هذا، الممدد أمام شرفتها، وقد أرسلته لها الأقدار لينجدها مِن ضجر البلاط. أو لعلَّها تخطط لقراءته بتأنٍّ ومُطالعته كاملًا من الغلاف للغلاف، ولكن أنَّى لها ذلك وهي في حجم هذا الخنجر المرصع بالجواهر. لكنَّ جشع أهل البلاط الملكي لا تعترضه حواجز العقل أو الطبيعة.

مِن ناحيتي، كرَجل إنجليزي ناضج، صحيح البدن وسَويّ الطبيعة، كنتُ أتحرَّق لجسد امرأة، امرأة حقيقية أقصد وليس خيالًا أستدعيه قبل النوم وأرى طيفه على الوسادة، امرأة بالحجم الطبيعي للنساء في الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. إلى جانب هذا الجوع الوحشي، لم أعد أجد أي متعة في وجودي هُنا، وسرعان ما تبدَّد رونق الدهشة الأولى، ولم يبقَ غير ضوء الشمس المفترس هذا. حتى انبهار أهل البلد بي ترسَّب مع الوقت، وهدأ فزعهم عند رؤيتي أوَّل الأمر، ثم صرتُ مجرّد مَعْلَم سياحي للزيارة والفرجة، أعجوبة في سيرك. كانوا يتجمّعون حولي، في أثناء جولاتي،

وقد سافروا من أبعد القرى ونزلوا من على رؤوس الجبال لإلقاء نظرة على ذلك العملاق، وكنتُ أغتاظ من مراقبتهم لي، وأحيانًا أصرخ فيهم مُطلقًا زئيرًا وحشيًّا فيتدافعون فزعين. لن أنكر لذتي بإحساس الضخامة والقدرة، لكنـي في بعض اللحظات لم أعد أعرف مَـن منا الوحشي ومن المتحضّر. أغراني السأم ذات مرة أن أبول من فوق تلة عالية فأغسلُ شوارعهم ببولي، كما قد يشتّت صبي إنجليزي عندنا بيوت النمل. كل ما يفعله شخص ضخم مصدر إبهارٍ لجميع الصغار، وهذا ما جعلني أتمادى في العبث وأتخفف مِن التقاليد واللياقة. ولعلّني قررتُ أن أنسى الحضارة والذوق بعض الوقت، تحت تأثير شمسـهم ذات السخونة القادرة على تأجيج أفسق الرغبات في نفـس أتقى الرهبان. إنما على ما يبدو، لسـتُ الوحيد هنـا الذي يفتك به الضجر. أنا وهي صرنا شريكين الآن، وقد ننفضح ويصدر الحكم بإدانتنا معًا، وقد نوضع تحت ذات المقصلة، ثم يختلط دمي الأحمر بدمها الأزرق وتخلـدُ حكايتنا. وهكذا رحتُ أتمادى في الخيالات الصبيانية حتى رحمني النوم من شدة الحرارة.

في اليوم التالي تمدّدتُ شبه عارٍ، ثم توافدت النساء الصغيرات الحجم، بأجسادٍ عارية تمامًا مثل أصابع مَوزٍ مُقشَّرة، لكن بوجوهٍ مختفية تمامًا وراء براقع حريرية سوداء، بثلاث فتحاتٍ صغيرة أمام العينين والفم، بالنسبة لي كان مشهدًا غريبًا ومثيرًا أيضًا. لا بدَّ أنَّ هذا إجراء أمان طبيعي، فمِن غير

الممكن أن تكون كل تلك المخلوقات الصغيرة مِن الجواري أو الساقطات، بينهن بلا شكَّ سيداتٌ حرائر ونبيلات، يتوزّعن على الدروب المتشعبة في حديقة المتعة السرية، وفي مركزها مضيفتي صاحبة المبادرة، التي سمعتُ أنها شقراء رغم أنها لا تنتمي إلى أصولٍ أجنبية، ولكن أين هي؟ مِن أي مخبأ سوف تتابع العَرض؟ ولماذا حرمتني بهذا الإجراء الوقائي مِن رؤية تعبيرات الوجوه المنمنمة؟ أم لعلّها واحدة من هاتيك المقنّعات؟ ولعلَّ الهدف وراء مسألة الأقنعة كلها هو حماية هويتها هي شخصيًّا. أرادتْ الجروة الذهبية إذنْ أن تحفظ خصوصيتها وتذوبَ مثل قطعة سكَّر في سائل الجموع، ليس احترامًا مِنها لروح الجماعة، بل لتستطيع هي نفسها أن تنسى مَن تكون وتتصرّف على راحتها، ولا تعود هي نفسها تفرّق بين النبيلة والساقطة في داخلها. تُرى من هي وسط هذه الأمواج الصغيرة مِن الأجسام العارية ذات الوجوه المحتجبة؟

وقفن حولي متهيبات، جيشٌ من الذباب حول قرص عسل يمنعه عنه حاجزٌ زجاجي شفَّاف. ربما لا يعرفن من أين يبدأن أو كيف يتقاسمن الكعكة. حتّى أنا شعرتُ بشيءٍ من التوتر، في تلك اللحظات التي سبقتْ صعودهن على متن جسدي. نعم، أنا الرجل الإنجليزي الناضج الذي كسرَ عذريته على يد بائعة هوى لندنية شِبه مسلولة، في عيد ميلاده الرابع عشر، بعد أن باعَ كتب الحكايات الخرافية وأعلنَ نفسه رجلًا.

لم أبادر؛ لئلا أفزعهن، أغمضتُ عينيَّ كأنني استسلمتُ للنعاس وتركتهن على حريتهن. ثم مضى دهرٌ آخر قبل أن تتغلّب إحداهنّ على الارتباك والجمود. تسلّقت كف يدي اليمنى المبسوطة على العشب، وبكل هدوء وتركيز جعلت تلعق أصغر الأصابع، وهكذا تَوَّج لسانُها خنصري إمبراطورًا صغيرًا. انهمكتْ في طقسها دقائق، ثم دعت الأخريات ليحذون حذوها. راقت لي الشقراء صاحبة المبادرة التي افتتحتْ الوليمة، أتكون هي الملكة؟ لماذا لا أستطيع أن أحوّل أفكاري بعيدًا عنها؟ لا بدَّ أنها ليست ضمن الحفل، بكل تأكيد تراقب الآن مِن موضع مستور، فلا يمكنها أن تجازف بقطع رقبتها إذا بلغَ الملك نبأ هذا الفجور، أم أنه متواطئ معها وربما يشاركها الآن المشاهدة ضاحكَين ومستثَارَين؟

عليَّ أن أقبل كرم الضيافة في امتنان وأريحية، وأن أركّز انتباهي نحو هذه اللذة التي راحت تنتشر في كل اتجاه على خارطة جسدي الإمبراطوري، وتلك المخلوقات الصغيرة التي ترسم لي خارطة المجد بلا أسماء ولا وجوه، مجرد عفاريت صغار، مثل تلك التي تظهر للبطل في الحكايات القديمة، فتدبر أموره وتحل مشكلاته، إنهم مجرد أدوات ووسائل وخطوات نحو العرش الأعلى، لا أريد أن أعرف أسماءهم وألقابهم ولا أن أرى وجوههم، لا بدَّ أن أنسى الملكة وأن أَقنع بنشوتي. لا بدَّ أن أكتفي بتلك الألسنة، المئات مِن الألسنة تنظف جسدي وتفرك رغبتي، تمسح عن رقبتي وكتفي أعباء

الأسفار والمغامرات، تهمس في أذنيَّ بهسهسة الأسرار الشرقية، وتدور حول سرة بطني، مركز كونها المجيد.

الآن يمكن لي أن أقول ما أمتع الترحال وكم مِن فوائد للسفر واكتشاف البلاد. الآن أنجحُ ولو قليلًا في استبعاد أسئلتي حول الملكة، تحت فيضان الألسنة والشفاه والأسنان. تغطي الأجسام الصغيرة جسدي تمامًا، شموعًا لمزارٍ مقدّس، يحسبونه معبدًا لربٍّ من أربابهم الوثنية، ولو أنَّه رسول الحضارة والتمدُّن وواهب النور لهم، نورٌ هادئ عاقل، مختلفٌ عن ضوء شمسهم الوحشي. والدغدغة نورٌ آخر يسطع ويضرب في صميم البدن واللحم والعظم، وأين الملكة؟ وشموسهم الصغيرة تقتحم الأعين المغمضة، وعجائب البلاد البعيدة كيف سأكتب عنها ذات يوم، وهل سأكتب عن هذا أيضًا أم سيبقى سرًّا لا أفضي به لأحد ولا لكتابٍ، إلَّا في سهرات الشراب مع الأصدقاء لأثير حسدهم؟

استشعرتُ بشائر الهزّة العزيزة تتقدّم من أقصى جبال إمبراطوريتي الحَية، وبدأت تتواتر قذائفُ المدفعية الملكية، فغمغمتُ لهنّ بكلام لا معنى لهم عسى أن يساعدنني على اجتياز لحظة التتويج الكبرى، ووجدتُ نفسي أتحوَّل لمتوحشٍ في غمضة عين. نهضتُ دون إنذار، فتساقطن عن مرتفعات جسدي وشقَّت الهواء صيحاتهن. استسلمتُ لشيطان النزق فأخذتُ أنزع عمَّن أجدها في متناولي قناعها، واحدةً بعد أخرى.

شعرت الصغيرات بالغدر ونقض الاتفاق المبرم، تسربن من بين أصابعي وقد غطَّى مائي الكثيف بعضهن تمامًا، وأنا أتلاعب بهنَّ مثل قطٍّ بري كاشفًا وجوههن وضاحكًا أمام صراخهن. تقافزن في البحيرة فوثبت وراءهن، لم أبالِ بغـرق بعضهن أو موت أخرياتٍ، في نوبة جنوني النبيل، ولم أتراجع حتى بعد أن سـمعت نفير الأبواق وصوت اقتراب الحرس المسلحين، إذ كان عليَّ أن أخوض معركتي للنهاية وأن أجد الملكة.

قميص إنسان سعيد

استيقظَ مُبكرًا ومُستبشرًا، كعادته كل صباح.

مسحَ أميرُ الحكاية بظاهر يديه آثارَ حلم الليلة الماضية عن عينيه، وأجال بصره في ما حوله يلملم أشلاءَ حياته بوعي اليقظة ويقيم صُلب ذاكرته.

هــذا جناح نومه في القصر. هذه هي مملكته الصغيرة التي لم يعد يذكر كيف أو متى آلت إليه أو ماذا فعلَ؛ لكي يستحقّها. لا يشغله إلّا مراياه المسحورة، يعبرُ منها فتتحوّل هيئته وحياته إلى هيئة وحياة شخصٍ آخر. هكذا يتجدّد، هكذا يعيشُ أبـدًا، وبعد أن يتناول فطوره ويُصرّف بعض شؤون الـحُكم العاجلة، يُفكّر متمهلًا في أي صورةٍ سوف يتنكّر هذا اليوم. لا أحد سواه يدخلُ إلى غرفة المرايا، ووراء كل مرآةٍ بابٌ سحري وممرٌ مُظلم يقودُ إلى حياةٍ أخرى، ولا رجوع منها إلى القصر إلَّا عَبرَ النوم واستعادة مملكته من جديد. لمسَ إحدى المَرايا فانشقّت ودخل، انغلقَ بابها وراءه.

استيقظَ مُبكرًا ومُستبشرًا، كعادته كل صباح.

مســحَ حَطَّابُ الحكاية بظاهر يديه آثار حلم الليلة الماضية عن عينيه، وأجال بصره في ما حوله يلملم أشــلاء حياته بوعي اليقظة ويقيم صُلب ذاكرته.

هذا كوخه الصغير، يرقدُ على حصيرٍ ناحلٍ عاريًا تمامًا تحت غطاءٍ خفيف، وإلى جانبه امرأة بدينة يســيل لعابها على المخدة، ومن حولهما يتناثر صِغارٌ نائمون. هذه هي مملكته الصغيرة التي لم يعد يذكر كيف أو متى آلت إليه أو ماذا فعلَ لكي يســتحقها. ألم يكن أميرًا منذ دقائق معدودة؟ مفاجآت غرف الأحلام لا تنقضي أبدًا.

زعق فيها:

– قومي يا ولية، النهار طلع.

– استر نفسك يا متعوس قبل أن أوقظ العيال.

– هذا المتعوس هو أمير الدنيا يا مسكينة.

– صحيح مسكينة لأنَّ الله ابتلاني برجلٍ خفيف العقل لا رجاء فيه.

– لماذا لا يكون هذا هو الـحُلم والقصر هو الحقيقة؟

– قسمتك ونصيبك، احمل بلطتك واذهب ولا ترجع بيدٍ خالية أحسن لك.

في طريقه كان الـحَطَّاب يُصفِّر لحنًا راقصًا ويوزّع التحيات والابتسامات، كأنه حقًّا أمير الحكاية.

في الغابـة كان الأمير ينفخ في كفيه ويحتطب ويسـيل عرقه على وجهه وبدنه، كأنّه حقًّا حطّاب الحكاية.

اثنان في جسد، وكلُ واحدٍ في حلمه. جسد الأمير في ثياب الحطّابين، يسـيرُ حافيًا وهـو يُغنّي وعلى كتفه بلطته، وحول خـصره حزام من لبّاد. يلتقي بعض معارفه فيسـخرون من سـعادته الدائمة بلا أسبابٍ وجيهة. ثم يلتفتون إلى أطرافه متسائلين:

- أهاتـان يـدا حطّـاب؟ أهاتـان قدمـا حطّـاب؟ واللهِ لكأنها لأمير البلاد.

وقد يبتسـمُ خجلًا كأنّهم كادوا يكتشفوا هويته في حفلةٍ تنكرية. وكما يحدث في كل يوم حتى نهاية الأزمان، إن كان لها نهاية، عليه أن يتعلّم كل شيء من البداية، أحيانًا بمعونة آخرين يعثر عليهم في طريقه، وأحيانًا بلا عونٍ إلّا ما يتلقّاه عَرَضًا عن مخلوقات الله من طيرٍ ودواب، يقلّد أولًا، ثم يخـترع، ولا ينعس ليلًا إلا وقد نسي كل ما تَعلَّم وابتدع، لكي يولد نظيفًا في الصباح. هكذا يتجدّد، هكذا تحتفظ لُعبة التنكر بدهشتها ورونقها مهما تكررت. ليس عليه أن يجدَ طريق العودة إلى قصره، ما عليه سوى أن ينام ويحلـم حتى يصحو وسـط بحرٍ من الحرير وجَنّاتٍ مِـن نخيلٍ وأعناب، وجارية يذكر أن اسمها عِنَّاب.

قـال لنفسـه سـأصحو أمـيرًا مهـما لقيـتُ مـن شـقاءٍ وراء كل مرآةٍ أدخلها.

قال لنفسه ربما أتكاسل غدًا، فلا ألعب ولا أخرج، ربما أملي حكايةً جديدةً على ناسخي، حكايةً عن أميرٍ يملك الدنيا وما عليها لكنه حزين، وحَطّابٍ لا يملك غير بلطته لكنه سعيد، وكيف أنَّ الحكماء وصفوا للملك دواءً لأحزانه أن يرتدي قميصَ رجلٍ سعيد، وعندما يعثر رجال القصر على الـحَطَّاب يُغني سعيدًا يجدونه لا يملك قميصًا واحدًا يستره.

- أين ذَهبَ قميصك يا متعوس؟
- خلعته ورميتُه في البئر قبلَ أن يصلَ رجال الأمير.
- كان يمكن أن يشتريه منك بثمنٍ يُغنينا وأولادنا لنهاية الدَّهْر.
- كان لا بدَّ أن أتخلّص منه حَتَّى يستطيع الأمير أن يكتب حكايته، وليتعلّم الناس أن السعادة لا تُشترى بالمال.
- ونبقى نحن جوعى ويبقى الأميرُ حزينًا؟
- كلنا خُدّام في بلاط الحكاية يا ولية.
- تغور الحكاية التي تفضح ولا تستر.

قد يضحك الأميرُ عندئذٍ، فيسمحُ ناسخه لنفسه بابتسامةٍ صغيرة، قبل أن يصرفه وقد أضيفتْ حكايةٌ جديدة إلى صندوق حكاياته. يقضي بعض الشؤون ثم يخلو إلى عِنَّاب، أقرب جواريه إلى قلبه، تُدلّك له جسمه بأفخر

الزيوت وأنعمها، وتهمس متساءلة:

– أهاتان يدا أمير؟ أهاتان قدما أمير؟ واللهِ لكأنها لحطابٍ تعيس.

– ماذا تقولين يا عِنّاب؟

– لا شيء يـا مولاي، ولكنَّ لك في كل يـومٍ حال، حتى بدنك يتبدّل فأكادُ أنكرك لولا الثياب.

– لولا الثياب لأنكر الناسُ بعضهم بعضًا.

– لكنَّ أصابعك مخدوشة كأنّك كنتَ تحتطب.

– زهور الكلمات لها شوكٌ يُدمي الأصابع، أم تحسبين أنَّ وَضْعَ الحكايات نزهةٌ في بُستان؟

– وفي أي صورةٍ تنوي أن تخرج غدًا؟

– لا أدري، ربما أكون تاجرًا جشعًا يضع عينيه على زوجة أخيه، أو أكون فقيهًا ضريرًا أضاعَ ختمه عند ضريح وليٍّ مجهول، أو غلامًا ناعمًا يعمل في حَمَّامٍ ويعبث به الرجال، أو صيّادًا يعثر على الجوهرة في بطن السـمكة، أو الجوهرة، أو السمكة...

تتدافع ضحكاتُ عِنَّاب كلّما أوغل الأمير في احتمالات مَرَاياه، فينهضُ إليها وقد تحفَّزت حواسه، مواصلًا التغني بأزياء تنكره:

– أو جارية حُلوة في قصري واسمها عِنَّاب.

- أأنتَ مَن يختار حقًّا، أم تختار لكَ المرايا؟

يبتعد عنها وقد اعترضَ سؤالها سبيلَ لَذّته:

- هـذا هو السـؤال القديـم الجديد يا عِنّـاب. كأنني أسـوقُ الـحُلم ويسوقني.

- لا بأس، ما دمتَ تعيش حُلمك يقظًا بينما يعيشه الآخرون نيامًا.

- لكنّ الأمير نفسه يبقى بلا حكايةٍ ياعنّاب.

تزعق امرأةُ الحطَّاب في الحالمِ:

- مَن هي عِنّاب تلك يا متعوس؟

- انخمدي الآن واتركيني أَنعم بعِيشة القصور ولو دقائق.

مِن وراء المرآة يسأل الحطّابُ صورته:

- ومَن تكونُ الآن يا أمير؟

فيجيبه الأمير من الجهة المقابلة:

- هذا هو السؤال الجديد القديم يا حَطَّاب.

أزمة سندريلا

مثل حيوانٍ خُرافي نائم، يطفو القصر الملكي، أقصى شمال كوكبنا السعيد. القصر منحوت بالكامل، لـمَن لا يعرف، من بلّورٍ نقي مُشبَّع بروح الياسمين، ويتهادى سـابحًا على سطح البحيرة العطرية الشاسعة وشبه المقدّسة عند بعض أهل الكوكب، يزورونها في مواقيت محددة، طلبًا للبرّكة ودرءًا لشبح الضَّجر المخيف.

منذ وقـتٍ مبكر من هذا الصباح، انتقلـت إلى القصر مقدّمة البرامج الشـهيرة روبي، بصحبة فريق عملها، لتسجيل اللقاء المنتَظر منذ فترة، مع جلالة الملكة سـندريلا. وفي إحدى قاعات قصر البلـور نصبوا المعدَّات اللازمة وأتموا الاستعدادات، ثم لبثوا ينتظرون ظهور جلالتها ليبدأوا البث الحي، ومن المتوقَّع أن يهتم بمتابعته جميع سـكَّان كوكبنا السعيد، الأرض الثانيـة، أرض الأبد، فقد كان هذا هو ظهور الملكة الأوَّل، على شاشـات البـث الكوني المركزي، منذ عشرات السـنين، ومن المتوقَّع أيضًا أن تفتح معها روبي ما يتردد منذ فترة حول أزمتها النفسية وأحلامها العجيبة، وكل تلك الأنباء المريبة التي تسرّبت عبر ثغرات القصر الملكي.

تجمَّد جميعُ الخالدين في انتظار بث اللقاء، سواء مَن تطلَّعوا إلى الأعلى نحو الشاشات الجماعية الضخمة في الميادين والشوارع والأماكن العامة المفتوحة، أو مَن نظروا إلى الأسفل نحو شاشات اليد الصغير وهم في العمل أو يتحركون بطائرات النقل الخفيفة، وكلّهم يترّقب لحظة اليقين وحَسْم التخمينات التي ملأت أرض الأبد منذ أشهر، حيث تكاثرت الأنباء وتضاربت حول طبيعة أزمة الملكة. قِيل إنها أصبحتْ تحلم بانتظام، وهو أمر أقرب إلى معجزة خارقة. لم تكن الملكة سندريلا بحاجةٍ لأن تحلم من الأساس، كانت تكتفي بالشرود، وحينما تتخيل شيئًا تأمر بتحقيقه، فيتجسَّد كما وصفته تمامًا. صوَّر لها خيالها ذات مرة أفيالًا جلودها مرقطة مِثل النمور ورقابها طويلة مثل الزراف، فما هي إلَّا شهور وتجسَّدت أحلامها على أيدي علمائنا الأفذاذ. ولا بدَّ أن نعترف -كَمَا أشارتْ روبي في مُقدّمتها للمقابلة التاريخية- وفي أثناء انتظار ظهور سندريلا، بأنَّ لمخيلة جلالتها فضلًا كبيرًا على أرض الأبد، فقد كانت هي السبب الأوَّل في تطوير العديد مِن المبتكرات والاختراعات الحديثة، حتَّى أوشكنا أن ننسى بالفعل معنى كلمة المستحيل.

لم يكن هناك مَجالٌ للمفاضلة بين مقدّمي البرامج والمذيعين من بين البشر أو المصَنَّعين، فوحدها روبي، (روبوت، أنثى، سَمراء، طراز 81)، كانت جديرة بحوارٍ في هذا المستوى، ولقاء لا يجري إلَّا كل خمسين سنةٍ

على الأقل. روبي مِن جيلٍ قديمٍ من الذكاء الاصطناعي البيولوجي، غير أنَّها وعلى عكس جميع أقرانها المصنوعين في عام 2981، استطاعتْ بمعجزةٍ غامضة أو باجتهادها الشخصي، أن تطوّر قدراتٍ خاصة لا يمتلكها أي روبوت آخر على سطح أرضنا الجديدة، استطاعت أن تفرح وأن تحزن، أن تبكي وتضحك، أن تحب وتكره. لذلك كله، نستطيع أن نقول إنَّها صارت أكثر قدرة على فهمنا نحن البَشر، أو فَهم ماضينا البعيد على الأقل، عندما كنا أسرى عواطفنا البدائية، هناك، على مَزبلة المجرَّة كَما تسمَّى الآن أرضنا القديمة، قبل أن نهجرها إلى الأبد، ونُدشّن خلودنا المبارَك هنا.

قالت روبي بابتسامتها العذبة والمستلهمة مِن آيات الفن الكلاسيكي على الأرض الأولى: «اسمحي لي، يا جلالة الملكة، هل صحيح ما نسمعه منذ فترة؟ هل تحلم الملكة سندريلا؟ أحلامًا عادية مِن تلك التي كان يراها الناس وهم نيام في الأزمنة القديمة؟».

كانت سندريلا لا تزال كما هي، في تَمام رونقها وبهائها، كما لو أنَّ القرون لم تترك أي أثرٍ عليها. مرَّت بضع ثوانٍ مِن صَمت مشحون بالتوتر، وبعدها ابتسمت الملكة ابتسامة صغيرة لروبي وقالت أخيرًا: «نَعَم، أنا أحلم، لكنَّ هذا ليس إلَّا جانبًا واحدًا مِن الأمر، وسأشرح لكِ كلَّ شيء. لكن لماذا يرى أغلب سكّان كوكبنا في عودة الأحلام كارثة أو كما علّق البعض علامة انهيار نَفسي؟ كَما قلتُ الأحلام لم تكن إلَّا مقدّمة فقط، لشيءٍ آخر،

أشد تعقيدًا. وربما يكون ذلك نداء موجّه إلينا جميعًا مِن خلالي. لا أدري، لكني أخشى تبسيط الأمور أكثر مِن اللازم. كَما ترون أنا لا أخجلُ مِن الحديث عن أزمتي كما يسميها البعض، وكُلّي ثقة من تفهُّم البعض لموقفي، أنتِ مثلًا يا روبي، وآخرين كثيرين مِن أبناء كوكبنا الخالدين، سواءً مِن ذوي الذكاء الطَّبيعي أو الاصطناعي، وأرجو أن يختفي هذا الفَصل العنصري بينهم بمرور السنوات...».

هُنا قاطعتها روبي في لباقة ونبرة اعتذار، عندما استشعرتْ ارتباك حديث الملكة، وأنَّها تنجرف بعيدًا عن موضوع المقابلة، معلنة ضرورة الخروج إلى فاصل إعلاني قصير.

الآن نترككم مع نبذة قصيرة عن لُعبة «كيك آس»، أحدث الألعاب الإلكترونية مِن إنتاج «إترنال»، ويمكنكم مِن خلالها اصطياد وقَتل أعدادٍ لا تُحصى مِن البَشر الفانين على الأرض الأولى، قَتلًا حقيقيًّا عبرَ أسلحة تملك قدرة فائقة على عبور الفضاء الكوني. وليبقَ شعارنا وهدفنا خلودٌ بلا ضَجر.

خلال ثوانٍ معدودة، أثار ما قالته الملكة لغطًا واسعًا في أرجاء الكوكب، وسبَّب انقسامات عميقة في الرأي على الشبكة الكونية. كتبَ مُعلّق شجاع على موقع خالدون بلا حدود: «هزمنا الموت ولم نهزم ماضينا الملوّث بالتراب» في إشارةٍ خبيثة إلى جِذر اسم الملكة سندريلا. آخرون رأوا أنَّ تلك بداية

عهدٍ جديد، سننعمُ فيه جميعًا بأحلامٍ حُلوة مِن الماضي البعيد، ماضينا على الأرض وقد عادَ مصفًّى مِن الشوائب والكوارث والمآسي.

أحد علماء النفس فسَّر الأمرَ كله بالكبت الجنسي، بما أنَّ الملك لم يكن يعير ملكته الجميلة اهتمامًا يُذكَر، ويُقال إنها تكتفي -كما يشاع- باستخدام أحدث الأدوات، وربما ذلك الشيء الجديد الذي أغرقَ الأسواق، والمصنوع مِن الريش المشرَّب بآهات اللذَّة.

تجرأ بعض المجهولين على القول بأنَّ الملك منذ أن نالَ سندريلا، في قديم الزمان، حتَّى عافها ولم يقربها، واتضح أنَّ شغفه الحقيقي لم يكن موجهًّا إليها بل إلى حذائها البديع، هدية الجِنيّة الطيّبة، نينا، والتي تَبيَّن فيما بعد أنها أصل أبناء الذكاء الاصطناعي على الأرض الأولى. يبدو أنَّ في هذا الكلام بعض الحقيقة، إذ ليس أمرًا خَفيًّا أن الملكَ يقضي ساعاتٍ طويلة في ممرَّات سِرّية مِن الخزائن المصفَّحة والمجهّزة لمقاومة الرعد والبرق والطاقات السلبية بجميع أشكالها. تحتشد رفوف تلك الخزائن بجميع أنواع الأحذية النسائية، تشكيلة عجيبة لا نهائية، منذ أن عرف الناس فَن كِساء الأقدام، وحتَّى أحدث التصميمات المبتكرة. لا تفارقه مجموعة مقتنياته تلك أبدًا، حتَّى في رحلاته بين الكواكب يأخذها على سفينته، ويُقال إنَّه لم يكن يضاجع مخلوقًا طبيعيًّا أو مُصنَّعًا إلَّا بعد أن يختار له زوجًا مِن تلك الأحذية، فيضعه في قدميه ويتأمّله بعض الوقت،

ثم قد يكمل الممارسة أو لا يُكمل، مكتفيًا بهذا. من المعروف أن جلالته، في هذه اللحظة، كان سابحًا بسفينته الخاصة في ملكوت السماء، ولعلَّه يتابع الآن مثلنا هذا اللقاء، الذي ربما ما كان ليعقَد من الأصل لولا غيابه عن أرض الأبد.

قالت روبي بعد انتهاء الفاصل: «هل يمكن أن تحدّثنا جلالة الملكة أكثر عن أحلامها؟ لسنا محلّلين نفسيين في نهاية الأمر، ولكن الفضول يكاد يفتك برعاياكم، وبي أنا أيضًا، فهل صحيح ما تردّد حول أنكِ تحلمين بحياتكِ القديمة قبل التتويج والخلود؟».

بدا أنَّ الملكة قد استعادت بعضًا مِن تركيزها وهدوئها، فأجابت بعد لحظة صمت: «نَعَم، أحلم بحياتي القديمة، ولا أرى أي خطأ أو عَيب في ذلك. منذ شهور كثيرة، وأنا أستعيدُ في نومي تلك الصبية اليتيمة التي تعيشُ مقهورة، تعذبها زوجة أبيها وابنتاها القبيحتان. كأنَّ عقلي تحوَّل إلى دار عرض سينمائي، أتذكرين السينما؟ طبعًا أنتِ تعرفين كل شيء، يا روبي. نسخٌ سينمائية متنوّعة مِن حكايتي القديمة تُعرَض في دماغي كلَّما غفوت ولو دقائق معدودة. فأصحو مرتبكة ومختنقة لأفاجأ بأنني ملكة كوكبنا السعيد هذا. لكنَّ جُزئية واحدة ظلَّت غائبة عن تلك الأحلام، وهي اسمي القديم، قبلَ أن أسمَّى سندريلا في الحكاية. وبدا لي أنَّ هذا هو السِّر، أقصد القطعة الأخيرة المفقودة مِن قَطع «البازل»، أتذكرين «البازل»؟

تُوجد نماذج منه في متحف الألعاب العتيقة، لكنكِ تعرفين كل شيء طبعًا. أدركتُ بطريقةٍ ما أنني لو استعدتُ اسمي القديم، ذلك الذي كان لي قبل أن يلتصق بي اسم سندريلا كأنه مرضٌ جلدي نادر لم تفلح بحيرة العطر في تخليصي منه أبدًا. أقول لو استعدتُ اسمي القديم عندئذٍ سينكشف حَل اللغز وتنتهي كل هذه الدراما السخيفة. وقد اتفق معي في هذا الموقَّر راما، كبير الرهبان النفسيين كَما تعرفين. في الوقت الراهن، أشعر بأنني على استعداد للتخلّي عن الخلود مقابلَ ليلةٍ واحدة في بيت أبي القديم، أكنسُ فيها الأرض حتَّى يغطيني الغُبار»، ضحكتْ روبي في توتر، لكنَّ الملكة لم تضحك.

عندئذٍ، قالت روبي بابتسامتها الطفولية الرائقة: «لكننا سمعنا أيضًا بإجراءات استثنائية تم اتخاذها في هذا الصدد. سمعنا عن صدور أوامر بجمع كل ما كُتب عن جلالتك، مُنذ أن وُلدت الحكاية، في قديم الزمان وحتَّى يومنا هذا. جميع القصص المستلهمة مِنها، بكل اللغات القديمة والحديثة، وبلغة برايل وإشارات الصُّم والبُكم، وكذلك لغات البرمجة، وحتَّى بعض لغات الطير والحيوان المكتشفة حديثًا. طبعًا إلى جانب الأفلام والأغنيات والألعاب، باختصار كل المواد الممكنة التي تحتوي على كل حكاية سموّكم. وتم تخصيص مبنى عملاق لجمع المواد، وتجنيد جيش مِن الموظفين، لفرز وغربلة كل تلك المواد، لعلَّ أحدهم يتعثَّر باسم ملكتنا العزيزة الأصلي».

تابعت الملكة حديث روبي بانتباه، ثم مطَّت شفتيها وقالت في تساؤل بديهي: «وماذا كان يمكن أن أفعل غير ذلك؟».

«ألا ترى جلالتكم أنَّ هذا يعكس شيئًا من الحنين المرضي إلى ماضينا الملوَّث على الأرض الأولى، كما علَّق البعض؟».

«قد يكون الأمر كما يقولون، يا روبي. قد يكون شوقًا للأرض الأولى، ولحياتنا السابقة هُناك، بل شوقٌ للفَناء، أيامَ كنّا نخاف المرض والموت وفراق الأحباب. اسألي في هذا علماء كوكبنا وكبير الرهبان والأطباء والمحللين، لكنّي وبلا خداع مجرّد دمية جميلة، كما يقول البعض. هكذا كانت الحكاية مِن البداية، وهكذا ظلَّت تتوالد نُسخها في كل جيل، ومع كل قفزةٍ جديدة نحو المستقبل الشجاع، حتَّى بلغنا الخلود، فظننا أنَّها محطتنا الأخيرة، غيرَ أن أحلامي تهمسُ لي بشيءٍ آخر، فلعلَّ المحطة الأخيرة ليست سوى انتقال إلى نقطة البداية مِن جديد. لا بدَّ أن أعلنَ الآن الحقيقة عليكم مِن غير أن أخشى شيئًا، وليكن ما يكون. لم يعد يُمتعني أي شيء في جنتنا المجنونة هذه، يا روبي، وأعلم أنكِ سوف تفهمينني، رغم أنكِ روبوت. لا أريدُ الآن شيئًا سوى استعادة اسمي القديم، ربما عندئذٍ ستفارقني تلك الأحلام وأستريح مِن وَجع الرأس هذا كله. صرتُ أفكّر الآن في أشياء غريبة، تجديف حقيقي، أقول لنفسي إنَّ إكسير الخلود، ذلك الذي شربنا منه جميعًا قبل أن ننتقل إلى كوكبنا الميمون هذا، كان ينقصه شيءٌ واحد فقط، شيء

نسيناه في نشــوة الفوز بالخلود، كان ينقصه إمكانية الرجوع. نَعم، أقصد مــا فهمتِ تمامًا، أن نرجعَ فانــين كَما كنَّا، لماذا ونحن نملك كل شيءٍ الآن تقريبًا، لا نملكُ الحقَّ في الموت، أن نضعَ نهايةً لوجودنا لو نشاء حينما نشاء. قد يتهمني البعض بالجنون، لكنهم...».

***

لكننــا...، لن نعرف أبــدًا بقية جملة الملكة. قِيل، فيما بعــد، إن الملك قطعَ رحلته منذ الدقائق الأولى لبث اللقاء الذي جرى من دون علمه أو موافقته، وتوجَّه إلى أرض الأبد على الفور. صدرت الأوامر بقطع البث، ولم تصل وتنفَّــذ إلَّا بعد فوات الأوان، بعد أن صرَّحت الملكــة بما يؤكّد أنَّ أزمتها ليست مجرَّد أزمة عابرة، أو لُعبة روحية جديدة من ألعابها يغذيها في خيالها كبير الرهبان راما، الذي تمَّ إرساله إلى كوكب سورتيلا ليمضي هناك فترة عقوبــة غير محدَّدة المــدة، أمَّا روبي فقد تمَّ تجميدهــا إلى أن يُبَت في أمرها، هي وبعض فريق عملها، ولقد شكَّل عشَّاقها ومعجبوها جماعات ضغط سرّية تطالب بإعادتها إلى الحياة. أمَّا الملكة فقد أُعلن جنونها وخروجها عن السيطرة، فَلَا يتوق للفناء بعد الخلود إلَّا مَن فقد عقله، وذكر بيان رسمي صدر عن البلاط أنها عوملت كما يليق بها، وأعيدت إلى الأرض الأولى بناءً على رغبتها، وهو ما يعني ضمنًا نفيها إلى الأبد، وسط الفانين والمتوحشين

وفي جو من التلوث والصراعات وندرة الموارد. ستكون سندريلا بذلك أول كائن خالد يعيش في جحيم مزبلة المجرَّة، وربما اتخذها بعضهم هناك معبودة، وسوف يتاح لها الوقت الكافي لتندم وتتوب وتكفّر عن ضلالاتها، وعندئذٍ قد ينظر جلالة الملك في أمر إعادتها من المنفى.

لم يعد سِرًّا أنَّ الألعاب الإلكترونية المنتظَر صدورها خلال أيامٍ معدودة، جميعها مُستلهمة مِن مأساة ملكتنا السابقة. إحدى تلك الألعاب يتقمَّص فيها اللاعب روحَ الملكة، ويمضي في رحلة بحث عن اسمها القديم وسط ملايين النسخ مِن حكاياتها، ويهذي بحديث مفكَّك وهو يحطِّم مَرايا القصر المَلكي، وإذا نجحَ في تدمير القصر البلّوري بكامله، فسوف يحصل على تصريح خاص بزيارة خزائن جلالة الملك التي تحتوي على مجموعة مقتنياته النادرة مِن الأحذية النسائية. في لعبةٍ أخرى، يستطيع اللاعب أن يستعيدَ شعورَ وأفكارَ الفانين على الأرض، يطارد خلالها بعض العلماء والسَّحرة ممن يملكون إكسير الخلود، حتَّى يتمكن مِن استعادته. ونرجو مِنكم ألَّا تستمعوا لكل تلك الأقاويل التي تحذّر مِن ألعاب «إترنال» الجديدة، التي تزعم أنها حيلة أمنية للإيقاع بكل مَن يراوده الحنين إلى الماضي الملوّث على أرضنا الأولى. تلك أكاذيب رخيصة مِن مُنافسين خرجوا مِن السوق، فقد عادَ الأمن والأمان والبلاطُ مستقرٌّ، وجلالة الملك مطمئنٌّ إلى وَلاء رَعاياه، ويرسلُ إليكم أرق أمنياته مِن رحلاته بين النجوم.

رحلة عازف النّاي

أنا أقدمُ الأَسرى على هذه السفينة، وربما في جميع سُفن الهَمَج، لم أعد أعرف كـم أبلغُ مِن العمر، ولكنَّ الوَهــن برهانٌ كافٍ. لا أدري لماذا أكتب الآن حكايتي. ربما أكتبها لأنصتَ إلى نغمةٍ واحدة أخيرة من موسيقى رحلتي التــي أظنها حافلة، أنصت إلى كلمة واحدة عابرة قبل أن تتبدّد بالنســيان أو بالموت. وربما أكتبها فقط لكي أترك اسـم سـوهارا المذكور بين سُكَّان السَّماء مذكورًا بين أهل الأرض أيضًا.

تواصلُ سفنُ الهَمَج إبحارها بغير انقطاع، ونحنُ في ظُلمة بطونها مُقيدو الأقدام بالسلاســل، نجدّف بها مِن موضعٍ إلى آخر، في بحثها الدائم عن غنائم متاحة، سـفن أخرى مسالمة أو قوافل غير بعيدة من خط الساحل. يتركون وراءهم كل شيءٍ خرابًا، قبل أن يذهبوا بما يستطيعون حمله وبعضَ من يصلحون للمتعة أو الخدمة أو عبيدًا للتجذيف، خاتمين على جلودهم رمزًا محددًا بميسمٍ مُلتهب. العلامة المختومة على رُسغي صارت باهتة بعد كل تلك السنين، لكن حُرقتها في قلبي لم تبهت قط؛ لأنها اختلطت بصراخ النساء والأطفال من قافلة اللاعبين، ومعهم كانت سوهارا.

لم أعد قادرًا على التجذيف، فتركوني أتعفّن هنا في العتمة، ولولا رأفة بعض رفاق العبودية لهلكتُ جوعًا أو ألقوني في الماء حيًّا. ربما أشفقوا عليَّ لأنني كنتُ أروي لهم أحيانًا طرفًا من سيرتي والقوافل التي تنقَّلت بينها قديمًا. تصدّقوا عليَّ من زادهم الشحيح، مؤخرين لحظة نهايتي قليلًا، ثم دبّروا لي لفائف النخيل والريشة، وصنعتُ هذا الحبر بنفسي من فتات الفحم وبعض الزيت، وبدأت أكتب، وهُم يرقبونني متوجسين، فأغلبهم يعتبر الكلمات المكتوبة نوعًا من السِّحر، لكنَّ مَن يقرأ بينهم سيضمن أن تعيش الحكاية من بعدي، وأن يبقى اسم سوهارا ولو قليلًا.

وُلدتُ لتاجرٍ مِن أسياد قومه، ونشأتُ مُنعّمًا وشببتُ مزهوًّا بنفسي، وعرفت في شبابي من اللذّات ما لا يهزمه ضجرٌ ولا فتورٌ. لكنني لم أكن أتوقَّف عن طرح الأسئلة، عندما أنصتُ إلى كلام السابقين وحكاياتهم حول مَنشأ جميع القوافل، أولى الرحلات وآخرها، وأصل منظمي الرحلات المحتجبين، وحكمتهم التي تتجاوز أفهامنا وراء تحريم الاستقرار في أي موضع وضرورة الحركة المتواصلة. أيام شبابي، كان يظهر كل بضعة أعوام، من بين أبناء إحدى القوافل، مَن يزعم وقوفه على السر، ويبلّغه للآخرين في حماسةٍ ونشوة، ولو كان في كلامه تحدٍّ للأعراف القديمة أو لعقائد قومه. أحيانًا كان يُعد هؤلاء مجانين وينبذهم أهلهم لكي يهيموا بمفردهم حتَّى يقضوا، بلا قافلة ولا وَنس ولا حماية. وفي أحيانٍ أخرى نادرة كان القوم

يصدّقون واحدًا منهم ويتبعونه ويبجلونه حدَّ أن يعتبروه إنسانًا مقدسًا لاتصاله بمنظمي رحلات القوافل واطلاعه على أسرارهم. ثم كانت تنشب الحروب بعد ذلك على الدوام، بين القوافل المتحيزة لأربابها وحكاياتها وتفسيراتها لمعنى رحلاتهم، ولم يكن دمُ الآلهة المقيمة هو ما يُسفَك، بل دم عابديهم من العابرين فقط. عندما يُرهقهم القتال كانوا يعلنون هدنة أو يتعاهدون على السِّلم، وقد يتزاوجون فيما بينهم ويقيمون الأفراح، وهكذا كانت تشتعل النيران وتنطفئ بلا سبب معقول، وما من سبب عندي يسوّغ سَفك دم الأبرياء، لكنَّ الرحلات كانت تتواصل رغم هذا، بغير توقف وبغير مغزى كذلك.

عندما مات صغيري الأوّل وهو بالكاد ينطق أولى حروفه المنغَّمة، كرهتُ العيش والأهل والمتع، وثقلت عليَّ الشكوك فبحتُ بها، وصرتُ أطرحها في غلظة وبلا تحرّز، لماذا لا نختار مولدنا ولا نختار موتنا؟ لماذا لا نختار حتَّى القافلة التي نمضي في ركابها طوال عمرنا؟ ما هدف كل هذا الانتقال الدائم مع دوران الشمس والقمر؟ ما الذي يجمع أفراد كل قافلة معًا، سوى الخوف والطمع وخرافات الدم الواحد؟ أي ذنبٍ في الإقامة والاستقرار إلى جانب صخرة أو شجرة أو قبر ابني توجا؟

سرعان ما أدركتُ أنه ما من أحد يملك جوابًا شافيًا غير الكلام القديم

المكرور؛ فالإقامة للآلهة ولنا العبور. سخرتُ منهم ونبذتهم قبل أن ينبذونني، ونويتُ أن أبتعد وأشردَ منفردًا بلوعتي وأسئلتي.

اعتدتُ التنقّل بين القوافل لشهورٍ، على أمل أن أعثر بينها على شيء لا أعرفه، لكني أتوق إليه بكامل نفسي. تُسْلمني جماعةٌ إلى أخرى، يَقبلني البعض بينهم ويرفضني آخرون، وأبقى غريبًا عابرًا، بلا مُستقَر. تعرّفت على لهجاتٍ ولغاتٍ شَتّى، حتى كدتُ أفقد طلاقةَ لساني الأوَّل، وصار حديثي مزيجًا غامضًا لا يكشف عن أصلٍ واضح. وعندما دققت النظر في الاختلافات والفروق بين كل تلك القوافل وجدتها أوهامًا زائفة، ووجدتُ الناس جميعًا نسخة واحدة متكررة لإنسان واحد فقط، نسخة تتنكَّر وراء اختلاف اللغات والثياب والزينة وطريقة الزواج وتناول الطعام. فكأنَّ مَن أرسلونا في تلك الرحلات هم أيضًا محكومون بقالبٍ ثابت، كأنه القانون، وكان عليَّ أن أكتشف ذلك القانون، إن كان له وجود. تلك أيضًا كانت أوهامٌ زائفة، لكنها حماقة المبتدئ أو جَسَارة اليائس.

في كل يومٍ، كُنتُ أتخلَّى عن جزءٍ من ممتلكاتي القديمة التي خرجتُ بها من قافلتي الأولى؛ لأضمن قُوتي وكفافَ عيشي، إلى أن نفدَ كلُّ ما لدي، فعرضتُ نفسي أجيرًا في سوقٍ مؤقَّت ينعقد لبضعة أيام في وادٍ تتقاطع فيه طرق القوافل.

ظهيرة اليوم الثاني من السوق، رأتني أرملةٌ في نحو الأربعين، تملك

سُفنًا للصيد، فأخذتني بلُقمتي وكُسوتي، وصرتُ من بين حاملي أمتعتها، ثم مِن بين حَرسها، ثم اتخذتني وصيفًا خاصًّا، قبل أن تستدعيَني ذات ليلةٍ إلى خيمتها وتعيدني مرة أخرى إلى أغلال اللذة وكنتُ أظنني تحررتُ منها. كان جسدها العاري على ضوء المشاعل كأنه الهضاب والوهاد على طريق مهجورٍ تحت القمر، وكنتُ أنا المسافِر العاري المرتجف. استسلمتُ، كأنني كنتُ أنبش الشَّهوةَ العمياء بحثًا عن ذلك الشيء الذي لا أعرف له اسمًا أو وصفًا، وتَوَاصل البحث في الليالي دون ثمرة إلَّا الصمت والخواء. وعندما وجدتُ نَفسي أترقَّب استدعاءها لي ارتعبت، وأدركت أنني وقعتُ في فخٍّ جديد، وأن الألفة تنسج شِباك الرغبة حول أفئدتنا في سكينة وصبر، ودون أن نشعر نصبح عبيدًا لها كما كنتُ عبدًا لدى سيّدتي. نويتُ أن أبتعد من جديد، وأن أعتزل هذه المرة جميع القوافل وجميع البشر.

وقفتُ بين يديها مطأطئ الرأس:

- لو تأذن لي سيدتي بالذهاب، فلن أنسى فضلها ما حييت.

- بل ستنسى، ولكن هل أنسى أنا الجوادَ النبيل؟

- كل شيءٍ يُنسَى يا صاحبة النعمة، فالليالي يمحو بعضها بعضًا.

- حتَّى وجسدك بين يديَّ، كانت روحك تهيم في البعيد.

- أخذتِ ما تملكين، فلا لومَ على ما لا يملكه أحد.

– لتفارقنـا حُرًّا كما أتيتَنا حُرًّا، واذكر ليالينا بالخير إلى أن تَمحوها ليالٍ جديدة.

لم أعدأقترب من طرق القوافل أو مِن أي جَمعٍ. عشتُ شريدًا ومنفردًامثل وحوش البريـة، بلا وَليفٍ ولانار. ثُمَّ آويتُ إلى كهـفٍ يبدو كأنه لم يطأه بشريٌّ مِن قبل، واستسـلمتُ أولًا لنوم مديد. وكنتُ أواصلُ الانتقال في أحلامي بين القوافل المختلفـة، ثم أحلِّق صاعدًا من فوقها، فأراها جميعًا قافلةً واحدةً بأذرع وسيقان عديدة ممزقة ومتناثرة في كل الجهات. إن كان الجميـع في الأصل واحدًا، فما الداعي لكل هذا الارتباك والكثرة والفرقة والشقاق؟ لماذا لم يقنع الواحدُ الأوَّل بنوره أو ظلمته؟

كأنَّ عنوان رحلتي السابقة هو الـحُلم المُشترك، حُلم الجماعة، وفي هذا افتراءٌ واضح، فالحلمُ لا يكونُ إلَّا لفردٍ واحد. لا يشـاركه فيه أحد، يراه وحده، ويعيشه وحده، ويستعيد ما تبقى من رموز وحده. وإذا ما استدعى في المنـام بعض الآخرين؛ فهم أطيافٌ تؤدي أدوارها المرســومة ثم تتبدّد. وكأنَّ عنوان رحلتي الجديدة هو الـحُلم الفردي، حُلم الإنســان الواحد، الكذبة التي لا تتبجح بأنها حقيقة، سرٌّ مخجل بين المرء ونفسه وكفى.

يصحو كلٌّ منا في لحظةٍ مختلفة من الحلم، فنجد أنفسنا تحت سماءٍ ذات نــورٍ مُلتَبس، فكأنه فجر يكذب بأنه غروب، أو غروب يزعم أنه الفجر. وربما يكون عنوان هذا كله هو الفخ، فلا حلمٌ لجماعةٍ ولا لفرد، والصبح

والمغيب مجرد أقنعة تخفي وجه السماء، كما أنَّ الحركة والثبات خداعُ الزَّمن والمكان.

وهكذا كدتُ أُجَن، فتناولتُ عُشبًا يورث السكينة والأحلام. وأمامَ عيني سقطتْ الأضداد جميعًا، فلم تعد الرحلة ثوابًا ولا عقابًا، بل شيئًا بريئًا من الحدين الساذجين وعاريًا من المعنى، كانت أمرًا واقعًا مباشرًا، يحدث وكفى، مثل عظاءة ملونة يقودها حظها السيئ إلى موضع عزلتي، فأشويها وأتقوَّت بها.

لكن ما أيسر أن يهزم الواحد جميع المعاني والأضداد، في عُزلةٍ سانحة وصمت حميم وهو يمضغ أعشابًا تجعله يحلم مفتوح العينين، ما أيسر أن يتغلَّب العقل على نفسه ما دامت النفس لم تُمتَحن ولم تجرَّب. واستيقظتُ من غفلتي ذات ضُحى لأرى قامته القصيرة تحجبُ نورَ الشمس ووجهه الملوّن بالأصباغ يبتسم ابتسامة كأنها الشَماتة أو التشفي. قالَ إنّه مُرسَلٌ إليَّ من مُنظّمي الرحلات المحجوبين، وقد أدركوا أنني أوشكتُ أن أكشف أسرارهم عن معنى الرحلة وغايتها. وقال أيضًا إنه أتاني في هيئة ساحرٍ جوَّال؛ لئلا يشكّ أحدٌ في أمره، ولم يأتِ إلَّا ليأخذ بيدي لأتجاوز العتبة الأخيرة.

انعقدَ لساني، وقبل أن أطلب منه برهانًا يطمئن له قلبي، أشار بيمينه، فتحوّل الكهف في لمح البصر إلى جزيرة عليها كل ما تشتهي النَفس، وتحلّقتْ

من حولي فتياتٌ تأرجحنَّ مع النسـيم بين الفُحش والعِفّة. ابتسمت وقد أدركتُ أنَّ أوهامي جَسَّدت لي دجَّالًا حقيقيًّا، يمكنه أن يلبي أدق الخواطر ويحقق المستحيل. فتذكّرتُ توجا، طفلي الأوّل والأخير، وسرعان ما سمعتُ صوتـه ضاحكًا مهللًا، ورأيتُه يـدرجُ متمايلًا نحوي وهو يغمغم: بَا بَا بَا. عندئذٍ لم يعد مهمًّا عندي هل ما زلتُ جالسًا في كهفي بعد أن مضغتُ عُشبًا يورث الضلالات، أم أنني صرتُ حقًّا ملك ملوك هذه الدنيا، قادرًا على بَعث الموتى، وعلى طَيّ المكان والزمان وبَسْطهما بين إصبعين.

تماسكتُ ورفعتُ كفي اليُمنى في وجه طيف الولد، فثبتَ في مكانه كأنه تمثالٌ حَي، وبسرعة أخذ يبكي وهو يصيح ملتاعًا: بَا بَا بَا. لم أعد أبًا لأحد ولا ابنًا لأحد، الصِّلة الأولى القديمة تَجبُّ كل قرابةٍ طارئة.

انقـضَّ الدجَّال ملـوّن الوجه على الصبـي وصرخَ فيَّ: ماذا تريد الآن لتتيقن أنَّها الحقيقة وأن ملكوت الدنيا تحت قدميك؟ أتريدني أن أعيد قتله وعذابه مِن جديد لتوقن؟

راحَ يغـرس أصابعه ذات المخالب الحـادة في صدر الطفل وجوفه. لم يعد صراخ الطفل طلبًا للرحمة يصلني، أخذ يبتعد وتتبدد صورته، وابتلع المـاءُ الجزيرةَ بما عليها كأن لم تكن. ثُمَّ نهضتُ وقد جفَّ العرقُ تاركًا آثار ملحه على جلدي وثوبي. خرجتُ من ظلمة الكهف مشتاقًا للضياء، فتشتُ عن عين ماء، حتّى قادني إليها صوت العصافير. نزعتُ ثيابي ونزلتُ عاريًا

أغسل نفسي وجسدي مِن معارك السريرة وكل الحروب السابقة. شعرتُ أنني كنتُ حُرًّا لأوَّل مرة في عمري كله، ثم سـمعتُ أصوات الموسـيقى والغِناء والصياح تتناهى إليَّ مِن بعيد. كانت نفسي تتوق إلى المرح والصحبة، فتتبعتُ الصوتَ وقد نويتُ أن أنضمَّ إلى أصحابه أيًّا كان شأنهم. وعندما وقـعَ بصري عليهم عرفتُ أن نصري على الدجَّال لم يذهب سُـدًى، وأنَّ علامتي الأولى أن يمنحني العالَمَ بُغيتي دون أن أعرفها وأنطق بها.

وجدتُ قافلةً من اللاعبين والمازحين والمرفهين عن الناس، شاهدتُ أمثالهم في جولات سابقة أكثر من مرة، لكنني لم أكن أراقبهم طويلًا. يمارسون فنونهم وألعابهم، ويقدّمون خدماتهم للقوافل الأخرى نظير أجر أو لمجرد المرح والونس. اقتربتُ هذه المرة بهيئة متشرّد وابتسامة أَبله. طلبتُ الانضمام إليهم، فقادوني إلى كبيرتهم لأمثلَ بين يديها وتحكم عليَّ. عندما سألتني لماذا أرغب في الانضمام إلى قافلةٍ من اللاعبين؟ لم أفكّر في جواب، أطلقتُ صوتًا شـائنًا من أنفي وسـببْتُها بكلمةٍ واحدةٍ فاحشة. اندلعتْ الضحكات من حولنا، وقامت السيدة البدينة ذات الـحُلي من كرسيها، وقبّلتْ أنفي علامة قبولي بينهم. أتمنى أن أكون قد عثرتُ أخيرًا على قافلتي ودربي ورحلتي.

لم يكن أيٌّ مِنَّا يشـبهُ الآخر، كلٌّ ينتمي إلى نفسـه فقط ولو كانوا إخوةً أشـقَّاء. ثوبٌ مرقَّع بألف لون وألف ملمس، بلا فضلٍ لرقعةٍ على أخرى إلّا في حـدود ضرورة تنظيم العيش، وهو نظامٌ ما أشـبهه بلذّة الفوضى.

إذا تعبتَ ترتاح، وإذا جعتَ تأكل، وإذا اشتهيتَ أحدًا تقرَّبتَ إليه، مِن غير أن تُؤذِي أو تُؤذَى، ومَن يفعل يُطرَد بعيدًا بلا جدال. ومع ذلك فأي انسجام وأي انتشاء، أتكون هذه هي الحرية حقًّا؟ لا يجبركَ أحدٌ على البقاء، وإذا شئتَ ابتعدتَ، لفترةٍ أو إلى الأبد، فإذا أتيتَ لا صَدّ، وإذا ذهبت لا تَشبُّث، فلا القلوب تتعلَّق ولا الأبواب توصَد.

نهارنا كدحٌ هو أقرب إلى لهو الصغار، نقيمُ للآخرين أعيادًا مُرتجلةً، ونبدد ثقل أيامهم في أوقات راحتهم القصيرة. وأغلبُ الليالي لنا، ندبّر شؤوننا ونسمر ونبتكر جديدًا في صنائعنا اللذيذة. تعلّمتُ مهاراتٍ عديدةً؛ لكي أستحق لقمة عيشي بينهم، لكنَّ صوت الناي أسرني أكثر من أي شيء، وظللت أرقب من مسافةٍ عازفيه، وأتطلع بإجلال لمعلمتهم سوهارا الصهباء ذات النمش، في مرورها كأنها قافلة وحدها، قافلة محملة بالعطور والتوابل. وآمنتُ عندئذٍ أن الرحلة لم تكد تبدأ، رغمَ شعري الرمادي، وأنَّ اللعب أشق المهن، لكن على قدر مَشقته تكون لذته.

عندما استجمعتُ شجاعتي واعترضتُ طريقها باسمًا في خجل، فوجئتُ بها تتساءل: أخيرًا؟ قاست اتساع صدري بكفها المفرودة وتناولت أصابعي تختبرها بين كفيها، ثم أعطتني نايًا صغيرًا للتمرّن، وأمرتني ألّا أكف عن النَّفخ فيه لأسبوعين قبل أن أرجع إليها لاختبارٍ جديد.

كان اختباري الأوَّل أن أبعث النومَ في أعين بعض الأطفال والحيوانات،

فنجحت. ثم طلبتْ مني بعد قليلٍ أن أوقظهم فرحينَ وأجعلهم يرقصون، فنجحت. وبعد شــهورٍ من ذلك، كان اختباري الأخــير أن أعزفَ معها بعيدًا عن الجميع. كنتُ أســمع نغمهتا وأردّ عليها بنغمتي، حتَى شرعتُ أرتجل وألعب، فتابعتني هي مستســلمة. عندئذٍ فقط ابتســمتْ، ولم تكن قد ابتســمت لي طوال تلك الشــهور ولو مرةً واحدةً، عندئذٍ فقط عرفتُ أنَّ المقيم الخالد لا يُسفر عن وجهه إلا في العابر الفاني، في ابتسامة الجميل العابر، في ابتسامةٍ وحَسب.

أتعلَّم وأجتهد، وأكتم الشوقَ صابرًا، ورغم ذلك تشي بي الحركة والنظرة وارتبــاك العبارة. لم تأبه هي لتلــك الخيوط التي أتخبّط بينها، ثم لم تعترّف بذلك الخيط الوحيد الــذي أخذ ينفتل بيننا خفيًّا كأنه أنفاسُ الناي، أو لم تشأ ذلك إلَّا بعد اكتمال الدرس وانتهاء مهمتها كمُعلّمة. ظللتُ أهيمُ بها في صمت كما يجدر بمتدرب مطاوع وإن كان في منتصف العمر، أسمعها بكل كياني، تقول:

«إيَّاك أن تعتبر نفســك عازفَ الناي، لا بدَّ أن تكون أنت الناي. أَفرِغ ذاتك من كل شيء، حتَّى يُمكن لنسيم الوجود أن يذعنَ لك ويتخلَّى عن حرّيته ويتسرَّب نَغَمًا تحت إيقاع أنفاسك».

«أوهن خواطر الذهن قد تعترض الطريق وتفسد النغمة، فالهواء مثل المرأة له غريزةٌ حادّة، والمرأةُ مثلَ الهواء لا حياة مِن دونها».

«لا بــدَّ أن تغيبَ عــن الدنيا بما فيها؛ حتى تسـتطيع أن تنفخَ في أذنيها بسِحرك، تغيب لكن دون أن تغفلَ عن حركة أصابعك على ثقوب الناي، دون أن تُفلتَ النغمة».

«فلتكن لأصابعك حياتها الخاصة بعيدًا عن رأسك وأفكارك، فلتتواصل حركتها بينما أنت ثابت، تتلاعب أنفاسـك بالهـواء بينما أنت بعيد ترصد وتراقب بكل انتباه كأنكَ المنصِت لا العازف. ربما تشعر بأنك هكذا تنقسم اثنين، لكنك ستشعر أيضًا بأنك واحدٌ مع كل شيء».

لم أعد أريد أن أكون واحدًا مع كل شيء، بل أن أكون واحدًا معكِ أنتِ وحدك. لكنّي أنصت صامتًا، أتعلَّم وأجتهد، وأكتم الشوقَ صابرًا، حتَّى ذقتُ النعمة بين يديَّ سوهارا العارفة بمنابت النَّغم، وصرتُ تلميذها مرة أخرى في فنون الحب والحياة، خلال سنواتٍ عشتها بالقرب منها في أمان دَرسٍ لا يُمَلّ بين الصحو والمنام، قبل أن تنتزعنا منها صيحات الهَمَج.

بعد أيام من عزفي لأوَّل مرة على الملأ، أخذتني بعيدًا عن بقية العازفين واللاعبين، رغم أنَّ أغلبهم لا يتحرّجون مِن المضاجعة تحت سمع وبصر الآخرين، لكن جمعني بها ذلك الشيء الذي يُشبه الحياء ويسخر منه اللاعبون، فلم نكن نعرف كيف نتعرّى لنسـتحم، كلٌّ بمفـرده، ثمَّ معًا فيما بعد، في رفقة آخرين، ولم نعرف كيف نتبادل قبلةً واحدةً في حضرة طائرٍ مُغرّد أو عنزةٍ لَعوب. كانت خيمتها صغيرةً، لكنها وسعت الكون كله.

لم أعد أريد أن أكون واحدًا مع كل شيء، ما دمتُ قد صرتُ واحدًا معكِ أنتِ وحدك. أنتِ يا مَن تكسرين المرآة وتداوين الجرح، وتنضم القوافل في بدنك لتعود واحدة، كأن لم يكن شِقٌّ ولا انشقاق، كأن لم يكن شاهدٌ ولا مشهود، نورٌ فقط، لا يضيء غير ذاته، فرحٌ فقط لا يُبهجُ غير ذاته.

كأنني لم أعرف امرأةً مِن قبلها. كأنني عشرتُ عمري كله حجرًا وأكتشف الآن فقط معنى أن أسمع وأرى، أن أشمَّ وألمس وأذوق. وحين امتطتني كالفارسة واندلع شعرها الأحمر يغطّي عينيَّ، أقسم أنَّ نارًا حقيقية لسعتني حتَّى كدتُ أشهق، لكن مجرد نطقي باسمها عندئذٍ كان بردًا وسلامًا.

كل شيء خارج خيمتها لم يعد له وجود، لم يكن يعني شيئًا. لا أقول إنني نسيتُ المعنى والقوافل وأسرار منظمي الرحلة المحتجبين فقط، بل نسيتُ حتّى سوهارا نفسها وقد حررتني منها بحضورها، فكأنني غبتُ لأجدني، وكلّما استغرقتُ ونأيتُ عنها في صمتٍ ثقيل كانت تعرف هي كيف تستدرجني بهداوة من كهفي القديم، فتجرح الصمت بكلمة أو مزحة، ثم تلعق دمعتي التي أكتشفها فقط عندما تفعل، وتشرع في الحكي، وهي تحتضنني من ظهري، تحكي كأنها تنفخ في الناي، تحكي كأنها تلفّق أحلامًا زارتها أو قد تزورها، ودائمًا تعود إلى حلمٍ واحدٍ بعينه يتردد عليها من زمن بعيد.

تقول: أرى نفسي في المنام راقدةً في خيمتي هذه نفسها، أرى نفسي

كأنني انفصلتُ عن جسـدي، ووقفتُ أمامه أتأمّله. ومعَ هذا فالشخصُ الواقـف المتأمّـل لا يكون أنا، بـل رجل غريب، يأكل جسـدي بعينيه في اشـتهاءٍ يائس، ولا يقدر رغم ذلك على أن يمد يدًا ويلمسـني كأنه تجمّد في موضعه، أو لعلّه يخشـى أن يوقظني لأنه يعلم أنني أحلمُ به الآن، وأنّه سـوف يتبدّد وينقطع تَطلّعه نحوي لو صحـوت. كنتُ أتردّد بين خوف المرأة النائمة ورغبة الرجل الناظر، وكلاهما أنا. وكثيرًا ما كان يهزم خوفه وحيرته ويحكي لي عن نفسه.

أسألها عمَّا كان يقول لها في الـحُلم قرينها المذكَّر ذلك.

فتجيب ساهمةً بينما تضفّر طرف شَعرها بطرف شَعري:

في كل مرة يقولُ أشياءَ مختلفة، لا يثبت على حال. لكني لا أذكر الكثير مما يثرثر به في الحلم، قد أذكر صوته، كلمة أو عبارة، لكن لا شيء مكتمل أو واضح.

أسألها بمكر:

ألا يعزف الناي أبدًا؟ ألم يُعلمه أحد الصنعة؟

فتهزَّ رأسها نفيًا وهي تبتسـم: بل يتكلم وكأنه قد عاش ومات ومَثَلَ أمام معبوده يرجو الغفران والنعيم. لا يدافع عن نفسـه، لم أشـعر بهذا في نبرته، بل كأنّه كان يجمّلها بذكر مزاياه ومحاسنه.

فأكملُ لها أنا من عندي: وكان يصف محاسنه كأنه أنثى، لا ذكر.

عندئذٍ تصيح في حُبور: بدأتَ تقترب مِن تفسير الحُلم.

بينما أكتب الآن كل هذا، أعيشه من جديد، فيعاودني نضرًا ومتوهجًا، كأنه حدث أمس فقط، أنا الذي ظننتُ أنني قد بلغتُ نهاية الرحلة، وتوقفتُ عن كل مسعى وأسلمتُ أمري لـحُكم الوقت متأهبًا للنَّغَمة الأخيرة، كما ظننتُ فيما سبقَ أن كربي تبخَّر وأنني هجرت الأسئلة في ذلك الكهف الذي انعزلتُ فيه شهورًا أو سنين، وأنني اندمجتُ في العيش مع جماعة اللاعبين. كنتُ واهمًا في الأولى كما في الثانية. الكرب والأسئلة أطول من العُمر، ولهما ظـلالٌ تمتد حتى سراج الشـيخوخة بنوره الواهن مرتعـش الفتيلة، ومَن يدري؟ فلعلَّها تمتد لما بعد انطفاء السراج وترقد بين عِظام القبور.

عِشـتُ مع اللاعبين سنواتٍ لم أشـعر بمرورها ولا أذكر عددها، ربما عشرة وربما عشرين، في كَنف امرأتي سوهارا. نعم، اتخذتُ رفيقاتٍ غيرها، واتخذتْ هي رفاقًا غيري، لكن في كل مرة كان أحدنا يجد سبيله إلى الآخر بعد بضعة أشـهر، متحايلين على أعراف اللاعبين التي تنفرُ من الارتباط المسـتديم بين شريكين. حتى ولو لم يضمنا فـراشٌ واحد لفترات طويلة، كنا نلتقي ونسير ونتكلّم ونلعب بالناي معًا، وحدنا أو وسط أولادها من البنين والبنات وبعض العازفين المتدربين. كُنا نسـتحم مع بعض الصِّغار

في عين ماءٍ عندما أغارَ الهمج، رغم إقامة القافلة آنذاك في موضع بعيد عن خط الساحل بكامله، لكنهم كانوا قد أوغلوا في اليابسة هذه المرة. جمعنا الصغار أنا وسوهارا وركضنا عَرايا، أصابني سهمهم الأوَّل في ظهري، وسرعان ما انقضّوا على النساء والأطفال يجمعونهم مثل مجنونٍ يقطفُ زهورًا نادرةً ليسد بها جوعه.

استسلمنا ببساطة؛ فاللاعبون لا يفهمون الحرب وغير مجهزين للقتال. أجهزوا على المُسنين في دقائق، وقيّدوا الرجال والشباب في أغلالٍ طويلةٍ، ثم تفرغوا لمتعهم، وظللتُ أيامًا عدّة لا أسمع سوى صراخ الإناث والأطفال بينما يتناوب رجالُ الهَمج الاعتداء عليهم.

أذكرُ أنَّ زائر الكهف ظهر لي آنذاك مرةً أخرى وأخيرة. كان يقف بين الحرَّاس ولا يرونه، ويحمل على كتفه ابني توجا، لكنه لم يكن يتألَّم أو يصرخ، بل يبتسم ابتسامة كريهة، فيها غواية آثمة وخمولٌ مُغْثٍ، وكانت رؤية صورته في تلك المرة أقسى على نفسي من كل ما سمعتُ من صراخ وعويل. هزمني الدجَّال أخيرًا، وندمتُ على كل شيء. لماذا هجرتُ عزلتي؟ لماذا تعلَّمت أن أنفخَ في الناي من روحي فيصير حياة تسري وتغسل الأفئدة؟ لماذا تعلَّقت وآنستُ؟ ولماذا كانت هي، سوهارا، ما دامت هذه هي النهاية المحتومة؟

عندما شبعَ الهَمج، أو ملَّوا، قرروا مواصلة ارتحالهم، وأخذونا معهم

عبيـدًا للتجذيـف. لم أنظر خلفي ولو مرة واحدة، رغـم ما تناهى إليَّ من صياح ونداء مَن تبقوا أحياءً بعد حفلات الامتهان والعذاب. كان عليَّ أن أتعلّم الاستسلام الناصع الصريح، لم أعد شيئًا حَيًّا إلّا بقدر ما في الصخرة أو السـحابة من حياة. في خيالي، اسـتعدتُ كهفي القديم، بنيته من حولي شرنقة شـفيفة، بينما أسـاقُ في طابور طويل نحو قبري السابح في الماء. لا بكيتُ ولا توسَّلت، لا عصيتُ ولا تمردت، صرتُ طيّعًا مثل حيوانٍ أليف ينفذ أوامر سـيده بلا حماس أو روح. كانت هـذه هي مهمتي الأخيرة في الرحلة، أن أتخلَّى عن إرادتي تمامًا، أن أجوَّع ما تبقى من أوهام الذات حتَّى تتضاءل وتختفي ويختفي معها كل كربٍ وكل ذكرى. لم أعد أريد حتى أن أصـل إلى الحقيقة أو السر، فلم يعد ذلك كله عندي إلّا أباطيل وأضغاث أحلام، ولو عثرتُ على الحقيقة ذات يوم فسوف أقايضها عن طيب خاطر بيوم في صحبة سوهارا.

الرحلة واحدة، والحلم واحد، ولسـنا جميعًا سوى صور ورموز فيها، لستُ سوى خطوة واحدة في الرحلة، وحتَّى سوهارا كانت إحدى خطواتها، لكنهـا في الاتجاه الصحيح، ولولاها لمـا تنفس العازف النغمة، ولما عرفَ العابر أنه مقيم.

لسنواتٍ لم أتوقف عن التجديف إلّا إذا أُمرتُ بذلك، أو نعستُ رغمًا عني وأشفق عليَّ الرفاق، فأراحواني قليلًا. في قبرنا الطافي هذا، لا نرى من

المياه والسماء إلَّا نتفًا ممزقة، مثل أيامنا السابقة على الأسر. لم يكن يهوّن عليَّ إلَّا ذكراها، وفي بعض الأحيان كنتُ أستعيد صورتها واضحة، وأنا نائم أو يقظـان، أراها وهي نائمة تتقلّب مُنعَّمة في أحلامها العجيبة، فأظل واقفًا بجانب فراشــها عاجزًا عن إيقاظها أو مَد يدي لألمسها، أخشى أن تتبدد صورتها. كنتُ أجدف والعالَمَ يتعفَّن مِن حولي في بؤسه وجرائمه، بينما في وَهمي أبقى واقفًا حارسًا على أحلامها، أتمنى لو تتقلّب مرة أخرى، فأرى جانب وجهها على نور القمر، وعندما أتعب من وقوفي هكذا أتحدث إليها، مستغفرًا ونادمًا أولًا، ثم مدافعًا عن نفسي لبعض الوقت، وأخيرًا لا أجد شــيئًا أقوله خيرًا من التغني بحُسْنها وفضائلها التي أنسبها إليَّ، واصفًا لها محاسني التي كانت في حقيقة الأمر محاسنها هي.

ثُم بدأت أنسى أشياءَ وأتوه عن لحظاتٍ كانت هي كل كنزي في سجني الطويل، وإذ خشيتُ أن تتساقط من بين يديَّ الحكاية كاملةً يومًا بعد آخر، فتحتُ فمي أخيرًا وبــدأتُ أتحدّث بها إلى رفاق العبودية، أحكي لهم عن عازف ناي وحيد، مرّت رحلته بقوافل عديدة، أرهق نفســه ســعيًا وراء السر، لكنه الآن في غنى عن كل شيء. وقبل أن تنتهي أيامه راح يجاهد لكي يتذكر من أين بدأت رحلته، وكيف وصل إلى هنا، وما هي قافلته الأولى، لكنه لم يعد يعرف عن يقين ســوى حكايته مع ســوهارا، والتي لن يعرف مع أنفاسه الأخيرة إن كانت جزءًا من حُلمه هو أم من حُلم شخصٍ آخر

التقى به ذات مرة، وسـهرا ليلةً حول النـار، فتبادلا الحكايات والأحلام ثم افترقا دون وعود أو معنى.

أميرة نائمة في مكتبة الأحلام

انهضي أيتها الأميرة، عودي إلى الحياة بحق قُبلتي هذه، بحق محبتي ومحبة ألوف الرَّعايا والمخلصين.

كَلَّا، اتركـوني نائمةً، دعـوني حيث أنا، لا تنتزعـوني من بين الكُتب، اتركوني أنامُ أكثر قليلًا، سـاعة أو نصف سـاعة، يومًا أو أسـبوعًا أو مئة عامٍ أخرى.

يفتـح البـاب ويُغلقـه، يـتردد بـين أن يتركهـا أو ينتزعهـا مِـن هَناء أحلامها.

قومي يا أميرة يا حبيبتي، السـاعة سَـبَعة تقريبًا، وأنـا لا أجدُ جوربي الرمادي الفاتح.

ستجده عندك، منشورًا على الـحَبل، اتركني أنعس قليلًا فأنا لم أنم إلا على الفجر.

اتركوني في مكتبة الأحلام هذه، عسى ألَّا تنتهي كتبها أبدًا وألَّا أوقظَ مِن سُباتي الطويل مرةً ثانية.

اتركوها نائمة، فلا شيء يمكنه أن يوقظها قبل الموعد المعلوم، اتركوها تقرأ وسوف تصل إلى آخر الصفحات ذات يوم، وسيكون عليها عندئذٍ أن تعود من سَماء الأوهام إلى أرض الواقع مُرغمة، تعود إلى زوجها وعيالها، تعود إلى الطبيخ والغسيل وتنظيف البيت.

في عيد ميلادها الخامس عشر، دخلت المكتبة أوَّل مرة، وعلى هذه الأريكة الخضراء المريحة غَفَت وفي يدها كتاب، وفي أحلامها راحت تنتقلُ من كتابٍ إلى آخر، ثم الذي يليه والذي يليه، ولا تزال في غيبوبتها إلى الآن، لا تغادرها إلَّا كل مئة عام، حين يفاجئها العالَم بأهلٍ وزوجٍ لها ومسؤوليات، تطيعهم وتراوغهم إلى أن تفلحَ في تنفيذ خطة الهرب ولو بعد حين.

اتركني نائمةً قليلًا يا حبيبي، كنتُ سهرانةً طول الليل مع الولد ولم ينم حتَّى طلع عليَّ الفجر. اتركني أنامُ ساعةً أو ساعتين يا ابن الناس، وسوف أطبخ كل لك ما تشتهي عندما أفيق، إذا أفقتُ، إذا انتهى هذا الحُلم، ليته لا ينتهي أبدًا.

في عيد ميلادها الخامس عشر، غافلت جميعَ أهل القصر واتجهت نحو ذلك البرج المعزول، صعدت حتَّى قمته، وهناك وجدتْ بابًا مغلقًا، فتحته فرأتْ عجوزًا تغزل، ولم تكن الأميرة قد رأت مغزلًا قبل هذه اللحظة. ماذا تفعلين يا خالتي الطيبة؟ أغزل، هل تحبين أن تجربي؟ وهكذا حطَّتْ عليها اللعنة، وهكذا حلَّت عليها النعمة. جُرِحَ إصبعها وطفرت منه قطرة دمٍ

واحــدة، وهنالك ثَبتتْ وردةُ الدم الصغيرة على طرف إصبعها، لا يَندبُ الجـرح ولا يتخثر الدم. وهكذا نامت وحُمِلتْ إلى هذه الأريكة الخضراء، تحــت النوافذ الزجاجية الهائلة، لمكتبة القصر، وبين يديها كتابٌ يتغيَّر على الدوام.

لماذا تنظرين إليَّ هكذا وكأنني شخص غريب؟ لماذا لا تعيشين معنا في هذا العالَمِ؟ لماذا تهربين مِن واقعكِ على الدوام، إلى المسلسلات والروايات والموسيقى وأحلام اليقظة؟ لا تخرجينَ مِن البيت إلَّا مضطرة، ولا تعرفين عمَّا يحدث بالخارج إلَّا ما تسمعينه عَرضًا، بين غفوةٍ وأخرى. ألهذه الدرجة لســتُ كفئًا لكِ؟ لستُ كافيًا للأميرة الطَّموحة ذات المستقبل الباهر وقد تحطَّم على صخرة الــزواج والأسرة. حتَّى الكلام صرتِ بخيلةً به علينا، فما جدوى وجودكِ بيننا وأنتِ تعيشين مُنوّمةً وتنامين في مكتبتك مفتوحة العينين؟

يفتح البابَ ويُغلقه، يتردد ويتركها في عُزلتها.

ومكتبــةُ الأحلام لا تدومُ أبدًا، مكتبةُ الأحــلام تتطاير أرففها وتتبدّد محتوياتها بمجرّد أن تستيقظ الأميرة.

يفتح الباب ويدخل، ومِن خلفه الحاشــية والـخَدم والجواري. يُقبّلها فتصحــو مرغمــة. ينحني عليها فتشــمّ رائحةً لا تُطيقهــا، رائحة الحقيقة تنتزعها مِن روض الكلمات. تصحو مرغمةً على أشــواك شــاربه ولحيته،

ومثــل كل مرة، تندهش وتنكرهم، وتتســاءل أين أنا، ومَن هؤلاء، وأين مكتبتي الحبيبة؟

لكن مكتبة الأحلام لا تدوم، كتبها مطبوعة بماءٍ مســحور، سرعان ما يذوب بفعل قبلة الأمير، هذا الواقف باسمًا وقد عثرَ على جوربه الرمادي الفاتح، هذا الذكر الزوج الغيور المتطلب الفارس الشهم، سيّد العالَم ورب البيت وعمود الخيمة.

مكتبة الأحلام تنكمش خوفًا وخجلًا، فيتمدد الواقع ويتمادى، مبتسمًا كأنه الحقيقة الوحيدة، وإذا الدُنيا كما نعرفها، كَمَا يعرفها هؤلاء، أهل الدُنيا وأبناؤها الأيقاظ، ولسنا منهم، لستُ منهم، لستِ منهم يا أميرة، فاتركوني نائمة، كلَّا ليست لعنة، بل هي نعمتي الأبدية. كَلَّا، لم تأخذني غيبوبةٌ مديدة بل انتبهتُ وأفقت وفتحتُ عينيَّ على عالَمَ الأبدية، الحقيقة الوحيدة. الجِنية الوحيدة التي لم تُدعَ إلى الوليمة هي مَن أرشدتها إلى الطريق، هي مَن ضمَّتها إلى صدرها في حنان وفتحت لها بابَ الجنَّة، ثم اختفت. كانت تُشبهها تمامًا، لكنها على عكسها تبدو سعيدةً وحرّةً، فتمنَّت الأميرة أن تصير يومًا مثلها، وأخذت تبحث عنها وسط الكتب، واحدًا بعد آخر، وكل كتابٍ مرآة، وكل قارئ نائمٌ يحلمُ بقرينه الخفي. انتبهتُ إذ دخلتُ جَنّتي وحدي، وخرجتُ منها وحدي، فقد حُجبَ عني سائر ما في الوجود وحُجبتُ عنه. يقولون انغلقــتْ صَدَفة النوم على كل مَــن في القصر من بشرٍ وحيواناتٍ وطيور.

يقولون طلعتْ مِن الأرض نباتاتُ مُتسلّقة في طرفة عين ونَمَت واستطالت حتى أحاطت بالقصر وغَيَّبته عن الأبصار، واستسلمَ الجميعُ لسُلطان النوم حتَّى تَفْرُغ الأميرة مِن قراءة القيلولة التي تدوم مئة عامٍ في كل مرة.

لكنني أنا آمنتُ بكِ، ولن تعرفي أبدًا ماذا فعلتُ لأنتزعكَ مِن سـجن نومكِ. عشتُ أهوالًا لن تجديها في أي كتاب، حتَّى أصل إليكِ، ويكون لنا بيتٌ وعيال، مثل بقية الناس. فلماذا تفضّلين غيبوبتك عليَّ وعلى حياتكِ، إذا نهضتِ أعدكِ بأن أتغيَّر، سأسـاعدكِ في كل شيء، سأغسـل الأطباق وأساعد العيال في المذاكرة. سألغي حفلات القصر الراقصة التي ترهقكِ وتكرهين ضيوفها، وسـآخذك في رحلةٍ بحرية لنرى شـواطئ العالَم كله معًا، أنا وأنتِ وحدنا.

ثـم تصحو على قبلته وطعم ريقه المرير المشـبَّع بالنيكوتين والقطران، تصحو على الكرنفال اليومي المسـعور، وقد ازدادَ كلَّ شيءٍ سُرعةً ولُهاثًا، يأكلون ولا يتذوقون، ينظرون ولا يبصرون. كأنهم أشباحٌ أمامَ الشاشات، كأنهم أطياف بشرٍ عرفتهم منذ مئة عام، أو أطياف شخصيات أخرى تعرَّفت بها ذات مرَّة بين غلافي كتاب، يا ليت هذا الكتاب لا ينتهي أبدًا.

وأيـن أنـتِ يا أميرة؟ لم تعرفي مثـل هذا الضجر الثقيـل أبدًا في مكتبة أحلامك، كل صفحة هناك حياة مديدة، وكأسٌ مُترعة بالأحداث، والأفكار، والصُّور. وما هـي الحقيقة؟ ومِن أين يأتي هؤلا الناس بكل هذه الثقة في

عالَمهم، وبأنه وحده الواقع الصحيح وليس حلمًا آخر؟ ثم مَن هذا الرجل؟ ولماذا يسمح لنفسه بتقبيلي؟ إنَّه أميركِ، موقظكِ ومخلّصكِ مِن اللعنة القديمة التي ألقتها عليكِ الجنّية الشريرة. أميركِ وفاتح الدنيا المغوار مهيب الركن، قائد العَسكر وبطل الألعاب الأولمبية ورجل الساعة ومعبود المراهقات وصاحب الميكروفون الذهبي ونجم الموسم وكل المواسم.

تستيقظين فتجدينهم مِن حولكِ، يطالبونك بالتكيّف مع الواقع، وبأن تتغيّري لأن الزمن تغيّر خلال نومك. يستبدلون بثيابك القديمة ملابسَ حديثة، غريبة ومضحكة. يعلّمونك استخدام الأجهزة الكهربائية واستخدام الكمبيوتر ويعرضون لكِ أفلامًا متسلهمةً من حكاياتك، نعم، أنتِ يا جدتنا الحبيبة، انسي البئر وعربة الخيول ومَشدّات الخصر، أنتِ الآن في عصر السوشال ميديا والتسوّق السهل بضغطة زر والانتقال بين القارات في بضع ساعات، وغدًا نسافر بين الكواكب كُلَّما مسَّنا الضجر.

لكنكِ كنتِ تسافرين بالفعل، حتَّى انتزعوكِ من أريكتكِ. لكِ روح امرأة عجوز، صحيح، لكنكِ لا تزالين في نضارة ابنة الخامسة عشر، وما تحملينه بداخلكِ لا يسعه قصر زوجكِ الملك، ولا الفضاء الافتراضي بكامله يكفي لاستيعاب ما علمته إياكِ عزلتكِ. ولن يغنيكِ شيء عن مواصلة البحث عن تلك الجِنّية التي تشبهكِ، عن حنان صدرها وعُمق فهمها لكِ، في النوم أو في اليقظة سوف تبحثين عنها، وسيظل هذا سر

أسرارِكِ، تؤرجحين مَهده وسط الولائم الملكية أو في أثناء التسوّق السريع قبل خروج العيال مِن المدرسة. تلمحينها فجأة، وراء سطح المرآة، أنتِ عابسة، وهي تبتسم، أنتِ في ريبة، وهي على ثقة، فمتى تنكسر المرآة وتعودين أنت وهي واحدةً على أريكة؟

الشاي يا أميرة. فتترك الأميرة الرواية على الأريكة وتقوم واقفة، وكانت توشكُ أن تمسكَ شيئًا ما، شيئًا قديمًا حلوًا، كأنه ابنة الخامسة عشر. ومَن هذا الرجل؟ زوجكِ، صاحب الشقّة والوظيفة والسيارة، الشاب العصري المتدين المهزار، ذو اللحية الخفيفة وعلامة الصلاة، الرياضي، حَلَّال العقد وبطل ألعاب الفيديو، هو نفسه أبو العيال ومشجّع الأهلي وبرشلونة وعاشق الطواجن والراغب دومًا في المزيد، العصبي ذو الكرش سليط اللسان، الحالم دومًا بالنظام الغذائي ولعب الرياضة، والمتلاعب دومًا في أصابع قدميه، والضاحك أمام أفلام محمد سعد، والصارخ فجأة: الشاي يا أميرة.

تنتبه، وتتذكر أوَّل هذه الحكاية، عندما رحلت في نومها لمئة عامٍ متّصلة، دون مقاطعات مِن أمير الحكاية وزوج المستقبل، لم تكن سعيدةً وحَسب، بل كانت هي السعادة مجسّدة. تذكرُ أيضًا سذاجتها القديمة، كانت تتوق لوجود إنسانٍ آخر إلى جانبها، يشاركها حلمها هذا ولو لوقتٍ قليلٍ ثم يذهب. شخص تتحدّث إليه، عن الكتب والموسيقى، عن البلاد واللغات، عن الفلسفات والعقائد، عن عالمها الوحداني المغلق الذي لا تمسسه يدُ

الزمان ولا يناله تغيُّرٍ. وبعد أن استيقظت لأوَّل مرة حسبت أنَّ حلمها تحقق، وأنهـا وجدتْ أخيرًا شريكًا لها في جنتها، سـوف تحكي له مغامراتها التي تواصلت في حلمها لمئة عام، والتغيّر الذي كان يجري في داخلها. ودَّت أن تشرح له؛ فرغم أنني أبدو ثابتةً مثل صورة في كتاب، ففي داخلي شيءٌ يتبدّل وجهه وكُنهه مع كل يوم، بل كل سطر. شيء صغير، كأنه رقم الصفحة أو نقطة فوق حرف. كان صغيرًا وأخذ يكبر وينتشر مع مرور السنوات حتَّى ملأها كلها، وملأ كل ما حولها. ودَّت أن تُشّبه هذا الشيء بحديقة مترامية خرجت كلها من قلب بذرة واحدة أصغر مِن أن تراها العين.

لم تجـد مَن تحادثه، لم يكـن الفارس الذي قد تحكي لـه أحلامها، كان متعجلًا على إتمام الزفاف ومرتبطًا بمواعيد ومتلهفًا على الخروج في حملاتٍ عسكرية ستغيّر وجه الأرض. ورغمَ ذلك، لا تزالُ تضبطُ نفسها تحلم به، بينما تنتظر أن يتشرَّب الأرزُّ الماء، بينما تُطبّق الغسيل، بينما تقلبُ صفحات أحلامها. تتخيَّل فارسها الجميل النبيل، تتوقَّع قُبلته المنعشة وريقه العَذب المستطاب، وترسم له صورةً مُجمَّعة مِن آلاف الأبطال والشخصيات.

صـارت تقومُ مِن الفجر، بعد إغماءةٍ بلا أحـلام. صارت تدخِّن سرًّا وتنتقل بين قنوات التليفزيون غائبةً عن الدنيا بالساعات. صارت تتنفس عميقًا كلَّما تناول مفاتيحه وقذفها بقبلته من بعيد قبل أن يخرج إلى معركةٍ جديدة تريحها منه ساعاتٍ أو أيامًا أو أسابيع أو شهورًا، فتعثر على الأقراص

الحبيبة، ومنها إلى باب المكتبة، ومنه إلى أريكتها القديمة، وهنالك تستعيد فردوسها المفقود، بين أغلفةٍ عَلاها الغُبار. وهنالك تتجدَّد قُواها وتستعيد عافيتها وعنفوانها. صارت تخاطب جنيتها الخفية، حبيبتها القديمة، صورتها حبيسة المرآة.

أتيتكِ تائهةً عسى أن أهتدي وأصل، أتيتكِ ضجرةً ومحبطة لتمنحيني شَربةً صغيرة مِن حماسـكِ وإقبالكِ ومَرحـكِ. شربةً لا أظمأ بعدها أبدًا، أو لا أظمأ بعدها تقريبًا، أو لفترةٍ طويلة، لبعض الوقت، لساعة أو بعض ساعة. وها هي الأقراص، وها هي اختراعاتهم الحديثة، وها هي الأفلام التي سمّيت باسمي، الجميلة النائمة، وها هي المرآة، فلماذا التردد؟

تنتبـه، وتدركُ أن حُلمها بأميرها هو ما اسـتدعاه إلى شرنقة سُـباتها، وأنَّ هذا لا يختلف كثيرًا عن شـوقها لأختها الجنّية، شـوقها لأي آخر هو خطؤهـا القاتل، فلماذا الـتردّد؟ وأين لَذاذة اليأس التـام؟ لمَ لا تفرغ كل ما في عُلبة الأقراص في جوفها، لتذهب إلى مكتبتها بلا عودة؟ لمَ لا تعانق وِحدتها بإخلاصٍ كافٍ؟

لكنَّ مكتبة الأحلام تغلق أبوابها في موعدٍ معلوم، وسـوف ترغَم على العودة، مهما طالت غيبوبتها، ولو لمئة عام، ستصحو مِن جديد على صوته وقُبلته، على أشـواك شـاربه ولحيته ومداعبته الفظَّة، متهللًا وفرحًا وكأنّه يراها لأوَّل مرة.

حمدًا لله على سـلامتكِ يا أميرة، متهللًا وفرحًا كأنه عادَ بأكليل النصر وقد هزمَ العالَم كله، ولتبدأ الاحتفالات المسعورة مِن حولها مرةً أخرى.

هكـذا يـا أميرة؟ كيـف هَانت عليكِ نفسـكِ؟ وكيف هُنَّـا عليكِ أنا والأولاد؟

اتركوني نائمةً قليلًا، احملوني إلى أختي الجنَّية. أنا أكره هذا القصر، ولا أريد كل هذه الأجهزة الكهربائية مِن حولي. اتركوني أنامُ إلى الأبد.

لكنها تنتبه وتقوم وتنهض وتستعيد وجهها أمامَ المرآة، ليبدأ الحفل مثل كل مرة، بقيادة هذا الأمير الملك السلطان الوالي الخليفة الرئيس القائد الزعيم المفدّى، عاشـق الألعاب النارية ومادح المعارك وعابد السيف ومغتصب العذارى وباقر بطون الحوامل وزوج البندقية وعشيق القنبلة.

مكتبـة الأحلام فقط قادرة عـلى هزيمته، وهزيمة أختهـا الجنّية التي توسوس لها مِن وراء المرآة وتحرضها على تخيّل أشنع الأشياء.

مكتبة الأحلام هي رحم أمَّها الآمن المطمئن، ستعود إليها كلَّما استطاعت، وسـتبقى مستعدةً لقُبلة اليَقظة تسـوقها إلى الحياة، كما يساق المحكوم إلى المقصلة، عدا أنَّ جثتها ستبقى حَيّةً وجميلة.

قبل أن ننهي السّباق

كلُّ شيءٍ حَوله يستحضر ذكرى الحرب في نَفس هذا الجندي السابق، حَتّى وميض حَجر العقيق الأحمر في خاتمه هذا يبدو مثل دمٍ متجمّد.

الخاتم عَطيةٌ من عطايا هذا الملك الجالسِ بجانبه الآن، الذي سيؤول مُلكه الهائل إلى الجندي، بعدَ أن ينتهي السِباق ويختار الشعبُ له إحدى الأميرات الراقصات.

كأنّه لم يكن منذ أيامٍ معدودة يتجوَّل بلا هدف بين البلاد، عارضًا مواهبه القديمة للبيع. ما عادَ قادرًا على خوض المعارك، فإذا أسعده الحَظ قد يجد مَن يستأجره لتدريب بعض الفِتية على ركوب الخيل والمبارزة. لم يُبدِ كثيرون اهتمامًا باستئجاره، ولم ينصت إلى أخبار معاركه القديمة غير أمثاله من الهائمين على الطرقات والمتبطلين في الأسواق والحانات. لكنه واصل طريقه، وكسَبَ عيشه أحيانًا مِن مهنٍ كان يحتقرها سابقًا، أيامَ كان يختالُ بثياب الجنود، أيامَ كان لا يعرفُ إلّا طريق الجيوش. ورغمَ ذلك، فقد عرفَ في ارتحاله الجديد هذا أوقاتًا طيّبة أيضًا، مثلًا يجد عند دخوله مدينة عيدًا أو كرنفالًا،

مثلًا تتودد إليه امرأةٌ أو أخرى -لسنَ من المحترفات- فيبيت عندهنَّ بضع لياليَ ثم يختفي فجأة خشـية انقضاء السحر بالإقامة والاعتياد. لم يستقر في موضع، شيءٌ ما في نفسـه ظلَّ يحثه على مواصلـة الانتقال، إلى أن بلغَ هذا البلد وسمعَ حكاية الملك مع بناته، فقرّر أن يجرّب حظه في حل اللغز. قال لنفسه سأقامر فإمَّا أن أفوز بكل شيء وإمَّا أن أموت، وفي الحالين أستريح. لطَالما آمنَ أن مهمة الجندي الأخيرة هي أن يستريح، أن يقعد في ظلٍّ رطيب ويرعى ذكرياته كأنها أحفادٌ غير مرئيين، حتى تتبدّد من حوله ذكرى بعد أخرى، فينالُ الجائزةَ الكبرى أخيرًا؛ وهي أن ينسى جميع معاركه.

لم يكن ينتظر أن تُوهَب له حكايةٌ مثل هذه في وقت تأهبه للراحة والنسيان. ملكٌ ومملكة وأميرات تُبلى أحذيتهن الجديدة كل ليلة، ولا أحد يدري كيف، رغمَ نومهنّ في جناحهن، وحينَ احتار أبوهنّ أعلنَ أنّ مَن سيكشف السر يُتوَّج رأسه، ومَن يخيب مسعاه يُقطَع رأسه. هذا ما سمعه الجنديّ الطيّب فاختـار كما اعتاد دائمـًا أن يقامر بالشيء الوحيد الـذي يملكه، بحياته، بجسده ذي القدم المصابة، بعينيه اللوزيتين الكليلتين، وبشعره الذي صار بلون الملح الرخيص.

هذا ما اعتاد أن يفعله، منذ أن كان سَليمًا معافى، منذ أن كان يافعًا مختالًا، يختار الانضمام إلى صفوف مَن يحسنون معاملة جنودهم ويجزلون لهم العطاء، ولا يهمّه مَن الغالب ومن المغلوب، ما دام يخرج من كل مقامرة فائزًا بالحياة.

ما عادَ يريد أن يتذكّر في أي الجيوش قاتل أو لِكَم من الوقت أو بأي ثمن. تزوره صورٌ منفرطة، وفي بعض أحلامه الكريهة يرى نفسه مقيدًا يراقب بُنَيَّةً عاجزةً عن الحركة، يتناوب على اغتصابها عصبةٌ من الجنود.

أمَّا صور حياته قبل أن يصير مرتزقًا فتكاد تتبدد من ذاكرته، يجهد لاستعادة وجوه أمّه وأخواته فلا يجد بين يديه إلَّا مِزقًا وقصاصات، حتّى الأسماء تتفلّت منه ويتشكك فيها. وحده الدم لا يذوب ولا يبهت لونه، لا يزال يطارده حتى في هذا الاحتفال المدوّخ. أفاقَ من شروده في الدم المعقود بحَجر العقيق على صوت إحدى الأميرات وهي تبدأ كلمتها لشعبها. هو الذي يقف وراء كل هذا الكرنفال، أخذوا باقتراحه أن يختار الشعب من بين الملك الفائزة بالعرش، بمسابقةٍ بينهنّ في الرقص. انتبه إلى صوت الأميرة الحُلو وقد أتمَّت رقصتها فوق المنصة العالية المزينة، تتطلع إليها الأعين الذاهلة، وتنصت الآذان المخمورة.

******

تحدّثت في صغري بلغاتٍ ليست من ألسنة البشر، ورأيتُ أشياءَ وكائنات لا أعرف لها أسماءً. كان هذا قبل أن يختارني سادتي غير المرئيين ويتمكّنوا مني وأستسلم لهم. فزعتُ في البداية وحسبتهم زُوّارَ الظلمة والهاوية، حتى أنستُ إليهم وعرفتُ أنهم رُسل النور والنشوة، فاجتهدتُ لأن أكون

جديرةً بهم، وقطعتُ ما بيني وبين الناس لأنال نعمة وصالهم، حتَّى صرتُ صلصالًا طَرِيًّا يُشكّلون قالبي كما يشاءون.

كلّما غبتُ في نشــوة الرقص تبيّض عيناي فأبدو مثل عمياء،وينكشف عنــي كلُّ حجابٍ فــأرى حقًّا،أتحوّل بكياني كله إلى عــينٍ كبيرة، مفتوحة على اتساعها، كأنها عين السادة والأرواح الـحُرة، عينٌ ترى هذا العالم كما يجب أن يُرى، فأنظرُ النبضَ المقدّس يسري في داخل كل حجرٍ وكل ورقة شــجر، أنظرُ الذبذبة الحلوة المتراقصة بين الـحَي والجماد، أو ما يُهيأ لنا أنه حي وأنه جماد.

سَلَّم بعضكم بجنوني، إذ يرونني أقفز في الهواء وأنثر الرمل من حولي، أمزّق الظلال والهواء بذراعيَّ وســاقيَّ. لكن بعضكم أدرك السِّر، وشعر بالنــداء الهامس يسري من بدني إلى بدنه، وتمنى لو اســتطاع أن يعمى عَمَّا في الوجود كُلّه مثلي. لا معنى للكلام إن لم تدخلوا الدائرة، لكني ســوف أبذل كياني كله حتَّى تذوقوا بعضًا مما أذوق.

أناشــدكم الآن أن تريحوا عقولكم قليلًا، فهي أصــل البلاء وأدوات عذابكم، وأن تنصتوا لأنغام قلوبكم وتختاروا الجموح، أن تمشوا إلى العيد وتقيموا الحفل الأبدي بالجسم والروح، وكلاهما أخٌ شقيق للآخر، ستنكشف لكم عندئذٍ الـحُجب وتسخرون مما يسمونه المستحيل.

الحيـاة قصيرة والوقت ضيق، وعندي لكم مِن الأسرار ما لا يُعد ولا يُحصى، ومباهج للجسـد بقدر ما هي للروح، فلا تسمعوا لمن يفرّق بينهما وهما الشـقيقان الحبيبان. وعندي لهذا المحارب القديم أيضًا مفاجآت لا يتصوّرها عقلُـه، عندي ما يبرئ جراحه القديمة كلها. عندي له إكسـيرٌ سيحمل له حلاوة السَلوى والنسيان، ويحمله معي على أجنحة الـجَذب، وقـد تروننا قريبًا ونحـن معًا، ملكًا وملكة، نرقص معًا مثل لسـانَي لهب يتضوّران شوقًا لأن يلتهمَ كلٌّ منهما صاحبه.



يتساءل الجندي الكهلُ في نفسه: هل يُوجدُ حقًّا ذلك الإكسير الذي سيجعله يَسلى وينسى، وهل يستطيع ذات يوم، رغم عَرَجه، أن يرقص وأن يرفرف مثل طائرٍ طليق، لم يُحبَس يومًا في الدِّرع والزَّرد؟

في أوَّل السـباق، عندمـا كان عددهـنّ لا يزال كاملًا، قبـل تصفيتهنَّ بالاقـتراع واحدةً بعد أخرى حتى يصلن إلى أفضل خمس، كثيرًا ما أحسَّ بالضَّيَاع بين حُسـنهنَّ ورقصهنَّ. لم يخطر لـه أنَّ أميراتٍ مصوناتٍ يُبْدين كل هذا الغَنَج على الملأ، فكأنهنّ كُنَّ ينتظرن تلك المسـابقة ويستعددن لها طيلة أعمارهن. كان يتملّكه الحياء حتى تسـخن أذنـاه، ويزوغ بعينيه مِن نظـرات الملك ورجاله من حوله، بـل قد يضطر لأن يُرخي عليه ثوبه كي لا يفضحه ذلك المنتعظ سيئ التربية. لم يمت في المحارب السابق كلُّ شوقٍ

بعــد، لا يزال طامعًا، ولا يزالُ يحتسي النبيذ ويحلم بنتيجة السِّــباق والبُنية التي سيروي بين ذراعيها ظمأ العُمَر.

ستكون الكلمة الأخيرة للشَّعب، خَيرهنَّ رَقصًا ستنالُ العرش ويتخذها سَكنًا ويتعلّم على يديها ما شاءت أن تعلّمه. وسوف يرقص الجميع رقصتها. وهكذا قد يتسلل الحكمُ من القصر إلى الناس خطوةً بعد أخرى، بلا دماء. يختار الشعب راقصته أولًا، ثم لون ثياب الملكة، ثم اسم مولودها، ثم شكل شــوارعهم، وهكذا بلا نهاية، ويكون كل اقتراعٍ عيدًا. ألا يزال يحلم؟هل ينتهي زمنُ الحروب على يديه حقًّا؟ وهل انقضى في داخله أصلًا؟

قبــل أن يجرب حظه في حــل اللغز كان قد التقى العجــوز إيَّاها، تلك التي تظهر لأبطال الحكايات في اللحظة المناسبة. أشفقت عليه، عندما رأته يســتحمّ في غدير، واطّلعت على آثار المعارك على جِلده، فحلّت جدائلها واقتربت تغســل شــعرها وهي تترنم بأغنية، أدركَ مغــزى الأغنية، لكنه تجاهلها وتريّث حتّى تبادره. كشفتْ له سِر الفوز في مقامرة الحياة والموت التي عزمَ عليها:

لا تــشرب النبيذ الــذي تقدّمه لك الأخت الكــبرى؛ ففيه مُخدّر قوي، تَظاهــر بالنوم حتى تطمئن الأميرات، وخذ هذه العباءة المســحورة معك ستجعلك خفيًّا، فيمكنكَ أن تتسلل من ورائهن حيثما يذهبن.

مِن نظـرة عينيها الجائعة ومِن كلمات أغنيتها عـرفَ الطريقة الوحيدة المناسبة للتعبير عن امتنانه لها فاقترب منها عاريًا. شيءٌ ما في داخله يُحرّكه وهو مسـلوب الإرادة، شيءٌ يدفعه لمواصلة طريقه في هذه الحكاية. أليس بوسـعه أن ينتفعَ بهذه العباءة المسحورة وينسـى أمر الملك وبنات الملك؟ يضعهـا على كتفيه ويواصل هيامه في البلاد. يُمكن لإنسـانٍ غير مرئي أن يمرَّ من جميع الأبواب وينال ما يشـاء، أن يسعى طليقًا من غير أن يُمسك به أحدٌ أو شيء.

لم ينطق بأفكاره، لكنه سمعَ العجوز تهمس في أذنه، بينما يتحرّك جسده مسلوب الإرادة فوق جسدها، تكلّمت عنه وكأنه غائب:

لَعلَّه يريدُ أن يُمسـكَ به أحدٌ أو شيء، لعلّه يريدُ أن يُرى وأن يُسـمَع، وقد طالت إقامته في الظلال.

**

منذ سنواتٍ كثيرة، بَدَّلتُ ثيابي مع صبيةٍ متسوّلة، وسعيتُ وراء موسيقى الغجر. بعتُ لهم نفسي وقلتُ خذوني فلن يفتقدني أحد. ومنذ ذلك الحين وهُـم أهلي وإخوتي، ومنهم رَجلي الذي علّمنـي سرقة الكحل من العين وبَيع نور القمر في قوارير للسـكارى وعـلاج الجرحى والمكلومين بحُليٍّ من نُحاسٍ أصفر.

فضحتني النجمة المطبوعة على كتفي منذ مولدي، وَحْمة حمراء بحَجم قُبلة، لها أذرع منمنمة مثل أشعة صغيرة ممتدَّة. ولو لا تلك العلامة المشؤومة لما عرفوني ولما أعادوني إلى قصر أبي. ألبسوني مثل دُميةٍ، وقالوا: أنتِ أميرة وسوف نعلمكِ كل ما فاتكِ، فصرتُ سجينتهم. هربت، فأعادوني، فهربتُ من جديد، ووهبتُ نفسي لرَجلي الأوَّل الذي لم أعرف سواه، وحملتُ طفله، فاستعادوني، وأسقطوا حملي، وأفلح حبيبي في الهرب، وعدتُ حبيسةً مع أولئك الأميرات الفارغات والمزينات مثل الدُّمى الخزفية.

إذا فزتُ بمحبتكم، سأكون آخر الملكات، ولنُنهِ معًا كلَّ سباقٍ إلى الأبد لكي نفرغُ للرقص والغناء. أنا ابنتكم، أنا الطفل الذي تاهَ منكم قديمًا، تعيشون بقية عمركم باحثين عنه وهو تحت أعينكم، يرقص لكم في الساحات ويتسوّل قروشكم وابتساماتكم. لا تشفقوا عليه، أشفقوا على أنفسكم، فهو عصفورٌ طليق وإن كان بلا مأوى، وأنتم دوابٌّ في الأسر، بيوتكم أقفاصكم وأشغالكم أغلالكم.

تعالوا نكفر بهذا كله، نصرف الحرّاس والجنود ونحرق عدّتهم وسلاحهم وندعوهم للشراب والمرح معنا. ماذا يربطكم بأرضٍ دون غيرها سوى الخوف من المجهول، أنا أتيتُ من هُناك وأقول لكم: إن المجهول ليس وحشًا بل ابتسامة قارئة كفٍّ تتغير خطوطها كل يوم. إذا صرنا جميعًا غجرًا مرتحلين، فلن يعترض سبيلنا شيء ولن تقيّدنا رايةٌ أو يؤلم أرواحنا نشيدٌ.

لكلٍّ ستكون أغنيته. فلتختاروا الحرية والركض بلا نهاية، لا تعطوا صوتكم لي، بل لأنفسكم، للأفق المفتوح يناديكم ويستقبل خطواتكم مع كل فجرٍ بعناقِ الأم تستردّ وليدها الغائب.

**

أَلَا تُشبهه قليلًا هذه الأميرة الغجرية؟ أسيرة تتمنّى الهرب، لكنّها تريد أن تأخذ الجميع معها. لا تزال صبية والصِّبا قرينُ الطيش، أمّا الجندي فلم يأتِ إلى هُنا إلّا لكي يختتم رحلته. لو اختارها المُصوّتون فربَّما وجدَ نفسه على الطرقات من جديد، وإن في صورة سُلطان الغَجر، إذا كان لأي إنسان سُلطانٌ على الغجر.

كأنَّ الملك حدسَ بأفكاره وهواجسه، فاقترب منه وأخذ برسغه كأنه يسحب ولدًا يافعًا، وانتحى معه جانبًا في مقصورةٍ غير بعيدة مِن الشُّرفة المطلّة على منصة العرض والمهرجان بأضوائه وصخب الباعة والجمهور.

اشتمَّ الجنديُّ رائحةً قديمة ليست غريبة عليه، تنبعث من ثياب الملك وجسده، هذا هو عطر الرهبة، كان يشمّه كلّما اقتربَ بها يكفي من قائدٍ أو ضابط كبير. رغم هذا فقد استراح للصوت الأجش وقد اكتسى ما يُشبه حنوًّا أبويًّا، وهو يُطمئنه بأنّ شيئًا لن يتبدّل وما ينبغي له، فليس بوسع أيٍّ مِن بناته خفيفات العقول أن تبدّل نظامًا استقرّ آلافَ السنين.

استرسل الشيخُ في حديثه كأنما يخاطب نفسه، قائلًا إنّ العَرشَ يُغيّر ولا يَتغيّر، يُغيّر مَن عليه ومَن حوله. فَمَا مِن أميرٍ إلّا وَرَاودته مثل تلك الأحلامَ الساذجة في شبابه الأوَّل، وأرادَ أن يقلب الدنيا كلها، لكنه بعد أن ينضجَ قليلًا ويشعر بثقل التاج على رأسه يستكين ويهدأ وتغادره الأوهامُ تباعًا. حتى هو نفسه ناوشته قديمًا بعضُ الأمنيات الصبيانية. تمنّى مثلًا أن تُلَغى النقود ويُستعَاد نظامُ المُقايضة، حتّى يصبح الذهب والفضة حُليًّا رخيصة كالأصداف والزجاج الملوَّن. تمّنى أيضًا أن يكون للمرأة ما للرَّجل من حقوق وواجبات، بل أن تختارَ شريكها بحريةٍ تامّة، لكنه مع الوقت نضج وفهم واسترد رُشده وأقرّ بحكمة التراث وعظمة التقاليد المستقرّة. وها هو الآن على وشك أن يُسلم إحدى بناته –ومن قبلها العرش نفسه– إلى كهلٍ مُعدَم وأعرج، لم يكن في حياته إلَّا جنديًّا مُرتزقًا، ظهرَ من المجهول، ولا يعرفون له أصلًا. لكنَّ كلمة الملوك عهد والعهد شريعة، والشرائع فوق الملك والتاج والعرش.

ثم استفاقَ فجأةً مِن مناجاته وغادرَ المقصورة تاركًا الجندي أشد غرقًا في أسئلته. لماذا قصدَ الملك إهانته؟ ما الذي يكمنُ وراء حديثه هذا؟ ممَّ يخشى الرجل المُسن؟ لماذا يصرّ على إبقاء العالَم في صورته القديمة؟ لماذا لا يشتاق الملك وهؤلاء جميعًا للراحة التي أتى يلتمسها هو؟ لا يُعلن الجندي تساؤلاته أبدًا، اعتاد السمع والطاعة، وأدركَ منذ بداية عهده بالجيوش

فضيلة الصمت والصبر والانتظار. هكذا فقط استطاع النجاة.

في أوَّل هذه الحكايــة، انتظر أيضًا صابرًا، ومتظاهرًا بالنوم العميق، في المقصورة الملحقة بجناح الأميرات وقد اجتمعن حوله يتخافتن.

قالت إحداهنَّ لأخواتها: أتانا هذه المرة رجلٌ هالكٌ مِن قبل، لن نرتكب جريمة بإرســاله إلى السيَّاف. لعلَّه لهذا لا يَخشى الموت، فقد اختبره كثيرًا، انظرن إلى الندوب على وجهه.

أجابتها أخرى بهمسٍ أملس كالفحيح: لا بدّ أن على جسده أيضًا خريطة لكل المعارك التي خاضها، مرسومة بالسيوف والرماح، لَكَم أحب أن أراها، ألا نكشف ثيابه لنتفرّج قليلًا؟

اعترضت إحداهــنّ بنبرةٍ لا تقبل الهزل: أين عقولكنّ؟هذه جثة عفنة في انتظار دفنها، فما معنى هذا الكلام عن وجهه وجسده؟ أين هذا الشيء من أمراء الجِن الذين نراقصهنّ كل ليلة حتى مطلع الفجر؟

فأجابتها أختٌ أخرى: قد لا يكون شابًّا وسيمًا مثلهم، لكنه بكل تأكيد عاشَ حياة لم يحلموا هم بها، ولديه من الحكايات ما يتجاوز رقصنا الليلي في غفلةٍ عن الجميع.

عادت التي تكلّمت في البداية لتتساءل: تُرى ماذا سيفعل وماذا سيقول

لو اطّلع ذات مرة على رقص واحدة منا؟ أو شاهدنا جميعًا ونحن نرقص؟ مَن منّا قد تنال إعجاب هذا الفحل المتوحش؟

رُبّما نبتت فكرة السِّباق في تلك اللحظة، مِن أسئلة الأميرة المجهولة تلك، الفكرة التي صارت بين يومٍ وليلة حقيقة حية تستولي على المملكة بكل ما فيها. لكنَّ الحُكم لن يكون للفحل المتوحش، بل لهؤلاء المرضى والجوعى والمنهكين، ممن يسيل لعابهم وتبرق أعينهم أمامَ ما يرونه من عجائب ولذائذ في فترات الاستراحة بين ظهور الأميرات الراقصات.

**

أحببتُ منذ صغري أن أستعيرَ ملامح أخواتي وأتلاعبُ بها، كان تقليدهنّ لُعبتي المفضّلة، أختار إحداهنَّ فأبالغُ في حركاتها وأسلوبها، فأُضحك عليها الأخريات. وحرصتُ ألَّا يُمسكن بي في علاماتٍ ثابتة لكي لا تسهل مهمة محاكاتي على إحداهن لو أرادت، إلى أن محوتُ ذاتي واكتفيتُ بتقمّص الآخرين.

كان الفراغ يتسع في داخلي، ووجدتُه مغويًا وحافلًا بفُرُص التبدُّل وأزياء التنكُّر. صرتُ أتحوّل إلى كل شخص وكل شيء، أنامُ أميرةً، ثم أصحو وصيفة. أذهبُ دابةً في الأرض، وأعود طيرًا يخفق بجناحيه، أقعدُ إبريق ماء، وأنهضُ شجرة. أدركتُ أن الحرية الحقّة تبدأ بالتخلّي عن وَهم الوجه العزيز علينا، فاتخذتُ أقنعتي ولم أتخلَّ عنها منذ ذلك الحين. لا أخفي

وراءها شيئًا غير عادي، فلستُ صاحبة جمالٍ قاسٍ كما قد يظن بعضكم، ولا خلفَها أيضًا مسـخٌ شائه كما يشيع البعض. وجهي عادي، مثل وجوهكم جميعًا، لا فـرق بينه وبين أقنعتي الكثيرة، إلّا أنه قَدَرٌ ثابت لا مهرب منه، بينما أختار أقنعتي وأبدّلها كما أشاء.

وليـس لي رقصةٌ ثابتة، ولا أكرّر الحركة ذاتها مرتين. أسرقُ مِن رقص الأخريـات ما يعجبني، أعيد صُنعه فيصبح مِلكـي. لا أدّعي أنني أبتدعُ جديدًا، بتقمّص الآخرين أنزع قشرتهم الزائفة، أعرّيهم فيصير الكلُّ واحدًا مهما تنوّعت الأشـكال. ها أنتم لم تعرفوا لي وجهًـا واعتدتم تغيّر أقنعتي وصـوري، لكنكم لم تملّوا حضوري، وهذا يكفي، وأعدكم بأن نقهرَ معًا الملل إلى الأبد إذا رفعتني أصواتكم إلى العرش.

أمَّا هذا المحارب البدائي، فأعدكم بأنني سوف أصقله وأهذّبه وأصنع منه كل يومٍ شـيئًا جديدًا. سـأعلّمه فنون التنكّر، حتَّى يصير سيّد المقنّعين جميعًا. يحل عليه المسـاء وهـو شيء ويطلع عليه الصبـح وهو شيء آخر، سـأعيده طفلًا وغلامًا وشـابًّا، سأجعله مرة سَـفَّاحًا ومرة قدّيسًا، عَرَّافًا وخِصيًّـا، ثورًا وبجعة ونفحة عِطر. ثم ننشر رسـالتنا معًا، هُنا أولًا، بين مَن لم يؤمنوا بها بعد، ثم خارج أسوار هذه المملكة، بين جيراننا الأقربين، ثم أبعد وأبعد، لما لا نهاية. صوّتوا للسـارقة الخفية ذات الأقنعة، صوّتوا للسـحابة الحرّة تتغيرُ أشكالها في لمح البصر، ولا سماء لها، تود لو تحملكم

معها إلى الضفاف البعيدة، حيث توجدون ولا توجدون.

**

مِن مَلك الغَجر إلى سَيّد المقنّعين. لماذا يستكثر الجميع عليه أن يصبحَ ملكًا عاديًّا؟حَتّى هذا الشعب النشوان باللعبة لا يبدو أنه يستهجن إساءة الأميرات إليه، هُو، مَن أتاح لهم فرصة الاختيار.

وما يهمّه مِن كل هذا؟ فلينعم بما يهبه الحاضر من لذّات، وليجرع مزيدًا من النبيذ الملكي الخطير. وها هو المغيب الناعم يطوي مشهد الأفق ويضيّق مجال النَّظر، وها هي المشاعل تنتشر في جنبات ساحة القصر وتضفي على الجموع مظهرًا وحشيًّا. وبعد ساعة أو أقل يُعلنون الأميرة الفائزة، فتبدأ الأفراح والليالي الملاح، بعد توتّر السِّباق. سيكون رابحًا في كل الأحوال، فما سرّ اضطرابه؟ أهوَ حضور الملك وظله الثقيل الذي قد لا يتراجع حتى بعد اختيار الملكة وتسليم الحُكم؟ أم أنه يخشى أن يسيء هذا الشعب الهائج الاختيار فيخيب أمله ويصبح ألعوبة بين يدَيْ فتاة مخبولة، هي نفسها مجرد ستار يحكم من خلفه الملك القديم ورجاله؟ ما يهمّه من كل هذا؟ لم يأتِ ليصلح العالَم، وليس لديه ما يخسره. ولعل أحزانه أقدم من حكايته الخرافية هذه، وكأنّ أساه يتفجّر نازلًا من نبعٍ ناءٍ في داخله، مِن أوّل أيامه في صفوف المقاتلين، حين كان غلامًا يافعًا يتدرّب بسيفٍ خَشبيٍ وثقيل عليه رغم ذلك.

آنذاك، نزعوا عنه أسماله القديمة وأعطوه ثياب الجنود وبعض العدّة، وألقوا به في معسكر التدريب، وحذروه من العَار إذا استسلم لمداعبات الأكبر سنًّا. آنذاك، كان النوم إغماءً والاستيقاظُ صفعة. آنذاك، كان لا يزال يذكر أسماء أخواته البنات ويحلم بهنّ أحيانًا وهنّ يرقصن له كأنه أمير على عرش المصطبة الطينية أمام الدار. الهَمّ قديم إذنْ، والنعيم المُستجد غير مأمون ولن يشفي من جراحه شيئًا، فالدماء لا تزال حية، مثل داء مقيم تحت نعومة الثياب الزاهية.

وَدَّ لو كان بوسعه أن يتحدَّث إلى الناس، كما تتحدث هاتيك الأميرات المتسابقات، لو يقول لهؤلاء المحتشدين إنَّ الحرب أيضًا احتفالٌ ومهرجانٌ وسباق للرقص. لكنها رقصةٌ للرجال فقط، اللعبة الوحيدة التي ورثها الذكور عن أسلافهم، لا يعرفون غيرها، ويأخذونها معهم من ساحات القتال إلى كل مكان، إلى طراوة الأسرّة في البيوت وصخب موائد الحانات وصمت محاريب المعابد.

أراد أن يقول شيئًا مثل هذا للبنات المتضاحكات حوله، في ليلته الأولى بهذا القصر وهو يتظاهر بالنوم ويكتم الابتسام ويستمع لضحكاتهن وحديثهن الفاضح عنه وعن رقصهن مع أمراء الجِن كل ليلة. أن يقولَ لهنَّ إننا أيضًا نرقص في المعارك، نصنعُ موسيقانا الخاصة، نصيح صيحاتٍ مخيفة على إيقاع النفير والطبول وصهيل الخيل ووقع سنابكها. نزكّي نيران الغضب

والبغضاء، ولا نعترفُ أبدًا بما يجمعنا بشريكنا في الرقص، باحتياجنا إليه، فهــو الشريك الذي لا تكون رقصةٌ مــن غيره، نبارزه ونغالبه وننحر عنقه لو قدرنا عليه، عندئذٍ فقط ينفضّ حفلنا.

كان يرقص مخفيًّا في عباءته المسحورة، وهو يشاهدُ الأميرات يراقصن أصحابهنّ من أمراء الجِن في قصرٍ تحت الأرض. هذه هي الرقصة التي طالما هَفَت نفسه إليها، دون أن يجرؤ على البوح بذلك. رقصةُ ما تحت الأرض، في مقابل رقصة ما فوق الأرض، رقصة الليل في مقابل رقصة النهار. كان يحجل بعَرجه الخفيف بينهم، ولو اطّلع عليه أحدُهم لشــبع ضحكًا. يدق بكعبيه الغليظين على بلّور الأرض، فيُسمَع لخطواته صوتٌ مُزعج، فيرتابُ جِنيّ وتتلّفت إنسية. لكن الحفل استمرّ حتى انشقَّ الظلام وتفرق الأحبَّة. أسرعَ بجمع ما استطاع من عجائب قصر الجن قبل أن يقفز إلى آخر قوارب الأميرات. لولا تلك الأدلة لما صدّقه أحد ولما انكشف سرهنّ.

******

أنا الوحيدة بينهنَّ التي رأت أمنا الملكة ساعةَ موتها. وقفتُ عند طرف الفراش أتأمَّلُ المشهد بمُتعةً غريبة، متظاهرة بالإشفاق والفزع أمام الأطباء والوصيفات. رأيتُ أمي الملكة الجبَّارة وقد تجرّدت مِن البأس والجبروت، بعد أن تخلّى عنها الـحُسنُ والذكاء، يتحشرج صوتها وتتقيأ دمًا، ورغم ذلك تواصل صَبّ لعناتها على الجميع. كانت لُعبة بين يدَيْ طفلٍ خفي،

مشيئته العَبث بكل عزيز ونبيل، فوجدتُني أحبُّ ذلك الطفل، وأتخذه ابنًا وأبًا وزوجًا.

لم نُولَد إلَّا لنجرّب الفقد والخذلان وتقوُّض أشد قِلاع الأرض والخَيَال، كأنها بيوت رملٍ بُنيت بأيدي الصغار وسرعان ما هُدمت بأقدامهم. أنا نهايةُ بؤسكم، فكلّما قاومتم العذابَ ازدادَ وحشيةً وافترستكم دوابّه بقسوةٍ أشد. أمّا إذا جرّبتم الاستسلام له والترحيب به لانفضّ عنكم. أنا رقصةُ التَلَف وراحة الهَلَاك المخيفة وقد حلّت أخيرًا وانتهى معها عَناءُ الانتظار والترقّب، وحين تبدو لن نجدها بشعةً كَمَا يصوِّرها خيالنا، بل ستبدو وليمةً وحفلًا زينته الدماء والفضلات والأوحال.

لا يضيرني إن اعتبرني بعضكم رمزًا للشر والشؤم والشقاء، أو أسماني بومة الخراب وضبع الجِيَف. وسوف أظل أطلقُ نُواحي وأهيل التراب على شعري المحلول وأبشّر بحلاوة الحداد الأبدي، سوف أظل أتسلّل إلى الخرائب والأطلال وأنام مستريحةً وسط القبور، وسوف تأتون جميعًا للانضمام إليَّ، ولو بعدَ حين، ولو يأسًا مِن كل سعيٍ باطل، ولو جثةً تُحمَل إلى أرض الحقيقة مُرغمة.

وإذ يخلو بعضكم إلى نفسه صادقًا يشم رائحة الموت العذبة تنبعث من داخله، موت وموت كل شيء، يتنسّم ريحَ التحلّل الحلو، فيتخدّر به لحظاتٍ قبل أن يستعيذ بالأوهام مِن سيرتي. لكني أعرف أني لستُ

وحـدي، وإلَّا لما اختارني بعضكم حتى بلغتُ هذه المرحلة من السـباق. أدعوكم أن تكشفوا عن وجوهكم وتجهروا بالدَّعوة، ليس عليكم أن تقتلوا أو تُقتلوا، فالقدر والزمن يتكفلان بمحو ذنب وجودنا كأنَّه لم يكن. تعالوا ننصـب خيمة ليلنا ونمد مآدب حسرتنا، ولتكن جنائزنا أعراسًـا ودموع فجيعتنا لذةً للشـاربين. وإذ تتعرّفون عليَّ في داخلكم تنبت لكم الأجنحة السوداء التي أعرفها، وسوى ذلك تبقون أذلّاء عَطشى، تَسعون مكبّلين في أثر سرابٍ بعد آخر.

**

تبدو كأنها لؤلؤة وتدعو إلى رُعبٍ أسـود وخرابٍ مقيم. ألأنها رأتْ أمّها تمـوت صارخة من الألم؟ ما أهون أسـبابها إذنْ، فـماذا يقول هو وقد رأى مدنًا تُبَاد بأهلها وبنيانها وزرعها؟ ورغم ذلك، فثمّة شيءٌ خبيثٌ في نفس الجندي أعارَ حديثها أذنًا واسـتجابَ له مِن وراء واجهة النفور الصريح. يفهمُ كلامها الذي لا يستحنسه إلا فاسدو الأوراح، ويحسّ رغمًا عنه صدى ندائها يتمطَّى كالجراثيم في ركنٍ آثم منه.

لقد تحمَّل فظائع القتال سنواتٍ كثيرة، ولم يغلبه سوى استنجاد الأطفال، لم يُهزَم إلّا أمام صبية بالكاد بلغت مبلغ النساء. كان جائعًا وظمآنًا، فاقتحمَ ذلك البيت مفتشًـا عمَّا يسـد رمقه سريعًا، وسَرَّه ألَّا يجد فيه أحدًا، شربَ وأكل ثمَّ سـمعَ صوت بكائها، تتبعه حَتّى عثر على البُنية مشلولة الساقين

مُخبَّأة في صندوق يكاد يفتك بها الذُّعر. لاذَ أهلها بالهرب وتركوها. حاولَ الجنديُّ طمأنتها بكلماتٍ لا يزال يذكرها من لغته الأم، حاول أن يسقيها أو يطعمها، بل فكّر للحظة أن يحملها ويهرب إلى حيث قد يعثر على أهلها أو مَن يعرفها. وقبلَ أن يهمَّ بفعل شيءٍ دخلَ بعضُ الجنود البيت وهُم سَكارى، لا يعرفون عمَّ يبحثون، حتى رأوه يحملها بين ذراعيه فظنّوا أنه أرادَها لنفسه واقترحوا تقاسمها، وعندما رفض وأشهر سيفه، عاجله أحدهم بضربةٍ قطعت كاحله وأعجزته عن الحركة، ثم قيّدوه وتناوبوا الصغيرة وهم يتضاحكون.

لعبَ النبيذ القوي برأسه وأخذه السُّباتُ مِن قسوة خواطره. كَبَا وهو جالسٌ بين الملك وكبير الوزراء. لم ينتبه أحدٌ لنومه حتّى صدرَ منه غطيطٌ خفيض، فتبادلوا تعبيرات الدَّهشة والامتعاض.

سمعَ في نومه صوته يُحدّثه قائلًا: إيَّاك وشَرَك الحرير والعقيق، لا تأنس لوَسوسة الحُلي وطراوة السُّرر والوسائد. إيَّاك أن تصدّق الوعود الحلوة والنهود النافرة وكؤوس الذهب وأباريق الفضّة، فالهدنةُ نسيمٌ عابر، والحرب موسمٌ مُقيم، اطرح الوهمَ وتحسَّر كما تشاء، فلن يعود إليك صِباك ولو بعد ألف رقصة وألف أميرة، لن تغطّي موسيقى العالَم كله على صرخات الطفلة العاجزة المشبوحة بين الجنود السكارى. ستأخذ كل ذلك معك حتَّى وأنت تنزل قبرك.

رأى نفسه كأنّه نائم في معسكرٍ، وفي منام الجندي الغافي في خيمته يرى أمَّه جالســة أمام الفرن تخبز فطائر العيد بينما تغني لهم. ثم يوقظه زميلٌ له قبل أن يذوق القضمة الأولى الساخنة الفوّاحة، فيقول له المستيقظُ وهو لا يـزال في أسر حلمه انظر إليَّ أيها التعيس، إنني أجلس بجانب صِهري الملك وسـوف يهبني مُلكه عن قريب. ثـم صوت النفـير، فينتبه ويتأمَّل ما حوله وكلَّه خجل. مالَ عليه كبير الوزراء وهمسَ في أذنه أن ينتبه ويخفّف من جَرع النبيذ، وعلى كل حال فهذه هي الأميرة الأخيرة. واصلَ الشـيخُ قائلًا إنها كبرى البنات، والأعقل والأجمل، الوحيدة بين أخواتها التي تلقّت منذ صغرها تدريبًا على جميع أمور الحُكم، محبوبةٌ من الشـعب والحاشـية، والكل يتمنى فوزها.

**

لَشَــدَّ ما أحزنني إعلان أبي جلالة الملك أن تكون جائزة مَن يكشف سرنا أن يختار مِن بيننا ملكته، فكأنه يعاقبني وحدي؛ لأنه يعرف أن العرش من حقي بكل اعتبار. ثُمَّ افترسني الـحَنق عندما اقترحَ هذا المرتزق الرخيص فكرة المسابقة كأنّه يتسلَّى على حسابنا.

كلُّ ملكةٍ تُولد مُتوّجة وترحل مستويةً على عرشـها، وليس عليها أن تركضَ في سباقٍ مُهين، وأن تنافسَ أخواتها في الرقص كأنهنَّ قطيع أمهارٍ أمام أعين الحمقى والمتراهنين. يفقد التاج كل قيمة إذا صارَ منحةً مِن الرعاع

والغوغاء، في انتخاباتٍ هي أقرب إلى فوضى الأعياد الشعبية.عزمتُ أوَّل الأمر على عدم التنازل أو المساومة، وأنني لن أستجدي رضا ومَحبة مَن لا يحلمون برؤيتني ولو مِن بعيد. لولا أن زارتني أمي الملكة، وأوصتني بأن أتجمّل بالصبر والحِلم معكم، فأترككم تلهون قليلًا ولو جُرحتْ كرامة العَرش. وهكذا كنتُ أرقص لنفسي لا لَكم، أرقصُ لروح أمّي التي لم تفارقني منذ أن رحلتْ طرفة عين.

إذا أردتم أن يدوم هذا المهرجان إلى الأبد أو غلبتكم شياطينكم وسِرتم مُنوّمين وراء الزينة البراقة والموسيقى الصاخبة، فأبشروا بالخسارة والبَوار، لكنني سوف ألبي نداءكم إذا احتجتم إليَّ كلّما جُرحَ صغيركم أو تألّم كبيركم أو هدَّدتكم الشرور المحيطة بكم من كل جانب، وما أكثرها. وأشهدُ أنّي أنا العذراء الوَلود يتخمّر في رحمها نسلُ الملوك بانتظار صياح الديك وانشقاق الفجر. أشهدُ أنّي أنا حافظة الكتب وزارعة الأعشاب والمداوية وقارئة الوجوه، ولسوف ترجعون إليَّ عندما ينتهي السباق وتعاودكم متاعب الأيام، ولكل شيءٍ عندي كتابٌ قديم ودواءٌ موصوف.

وليعلم هذا المرتزق الرخيص أنَّ إدارة أمور البلاد ليست بسهولة التلاعب بالسيف على متن حصان عجوزٍ مُنهَك، وأنه مِن غَيري ومِن غير حكمة أبي ورجاله سيكون عاجزًا عن اتخاذ قرارٍ واحدٍ سديد، وسوف يتلاعب به أصغر الولاة وأهون رجال الحاشية. أمَّا أنتم فسوف تتآكل حدودكم،

وقد تجدون الأعداء المتربصين فوق أسرّتكم بين يومٍ وليلة، لكني لن أتخلّى عنكم أبدًا؛ فليس للأم أن تتخلّى عن أبنائها، تظل مربوطة بهم بحبلٍ خفي، حبلٍ مثل جذور الشجرة يثبتها في موضعها، وإن رَغمًا عنها وعلى حساب كبريائها العزيزة.

**

هذه شجرةٌ يختلطُ في ثمرها الوعد والوعيد، لكنَّ أصلها ثابت وفرعها في السماء. تَتحدَّث وكأنَّ شيئًا لا يَعنيها من هذا كله، وكأنها ضمنت فوزها مِن قبل أن تولَد. قَسمَ كلامُها الجنديَّ نصفين، فنِصْفٌ وَدَّ لو يركع بين يديها مبديًا أسفه على اقتراحه فكرة السِّباق واستعداده للاعتراف فَورًا بحقها الأصيل في العَرش. ونصفٌ آخَر ودَّ لو يُقيّدها ويجلدها على الملأ، حَتّى تتبدّد سحابة الرَّهبة التي عقدتْها فوق رؤوس الجميع.

أفرغَ مزيدًا مِن النبيذ في جوفه رغم ما كان يشعر به مِن دوارٍ وغثيان واختلاط الأفكار. عَسى أن يُهوّن عليه وطأة انكشافه الوشيك تحت آلاف الأعين وعشرات المشاعل، وأن يعينه على الاستهانة بالمصائر الخطيرة التي تتحدّد بين يديه. ثم انتبهَ على الملك وكبير وزرائه يتفرسّان فيه كأنهما ينتظران منه قولًا ما، وحين لم ينبس بشيء، بادرَ الوزير يقولُ كأنما يبدي ملاحظة لا شأن لها إنه لو كان له الحق في التصويت لاختار الأخت الكبرى من غير شك. ثمَّ سأل الجندي عن رأيه، فنقلَ هذا عينيه بين الوجهين الشائخين

المُخيفين، ثم غضّ بصره وهزّ رأسه وخرج صوته مرتجفًا وغريبًا عليه كأنه صوت رجلٍ آخر: الكلمة للناس، وأنا سأرضى بمَن يختارها الشَّعب حتَّى ولو أساء الاختيار.

ربّما تكون هذه هي المرة الأولى منذ أن دخل الجندي إلى هذا القصر يرى فيها الملك يبتسم، لكنها كانت ابتسامة غريبة كأنه سمعَ فجأة أغنية صبيانية، سمعها ذات مرة منذ عشرات السنين، ولم تعد تثير فيه غير السخرية، وربما بعض الشفقة.

خاطبه الملك وطيفُ الابتسامة المُتسلّية لم يختف بعد: الشعب اختار ملكته مِن زَمان يا أَخ، إنها كُبرى البنات، لكنّ هذه المسابقة كانت إلهاءً ظريفًا للعوَام، وفرصةً مُواتية للتُجَّار والصناع، واستعراضًا لأبهة البلاط وقوة الحُكْم. أمَّا أنت فلسوفَ ترضى بما نقوله لكَ منذُ الآن وحتَّى نهاية عُمرك، وسوف تخرج بنفسك بعد قليل لتعلنَ على الملأ الخبرَ السعيد، فما قولك أيها الشيء الصغير؟

لم يدرِ ماذا يقول، وإذ فتحَ فمه ليعرب عن رفضه بغِلْظة كما تمنَّى، لاحظَ كبير الوزراء يُمسّد مقبضَ خنجره البارز من زناره كأنه يداعبُ حيوانًا أليفًا. والجندي خرجَ من الظِلال إلى النور، والبيدق سارَ مسافاتٍ هائلة لكي يُتوّج ملكًا، والكهلُ العابر دخل في الحكاية بإرادته، لكن كيف عَساه يخرج منها على قدميه؟ وفجأة غلبه الغثيان واستسلم للقَيء، فاستفرغَ

حَبلًا غليظًا من سائلٍ أحمر كالدم، تناثر رشاشُه على المَلك ووزيره، ملوّثًا الأحجارَ الكريمة والماسات على التيجان والصدور والحُلي واللحى المشذّبة المصبوغة. أمامَ خرس الذهول وعلامات الاشمئزاز، دارت به الدُنيا فَغابَ عن الوعي.

سمعَ الصوت الذي يُشبه صوته مرةً أخرى يقول له: لا النبيذ شرابك، ولا هـذا القصر بيتك، لا بيتَ لك منـذ أن هَدمَ الغزاةُ بيتك الأوَّل وقتلوا أباك وأخذوا أمك والبنات. كان عليكَ أن تبقى شاردًا على الطرقات حتَّى النهاية، تسعى وتبيت تحت سماء الله، ربما ترى في أحلامك أخواتك البنات يرقصـن حول النار، وكل منهنَّ تتظاهر بأنها أميرة الحكاية. كان شرابكم لبن العنزة والقدح من صفيح والتاج من سَـعَف النخيل والمصطبة الرطبة هي مقعـد العرش، والدُّنيا كلها مملكتم الفسـيحة. كل ذلك قبل أن يأتي الجنود، قبل أن تصير واحدًا من هؤلاء الجنود، قبل أن يَعتدوا على الصبية وصرخاتها تسوطُ عجزك وهوانك.

رشّوا على وجهه بعض الماء، وبعد أن أفاقَ قليلًا سمعَ أعضاء اللجنة المُنظّمة يتهامسون مع الملك ووزيره. ثم اقترب الملك منه وكله غيظٌ ونفاد صبر، فأمره من غير موارَبة أن يغتسل ويبدّل ثيابه ويتجّهز سريعًا لإعلان نتيجة السِّباق وتتويج الأخت الكُبرى ملكةً على البلاد، فلا مملكة من غير ملك ولو كان دُميةً مُضحكة، ولن يصدّق الناس النتيجة إلّا إذا أعلنها هو

بالذات، الجندي البسيط الذي حلَّ اللغز وكشف السر. ثم ذهبوا وتركوه في قفصه الذهبي وعلى أبوابه الحَرس.

بإلهامٍ بسيط وكأنما كان يعرف تمامًا ما عليه أن يفعله، استخرج عباءته السحريةً من بين صُرَّة أمتعته، هدية العجوز التي أخفته عن أعين الأميرات والتي أخفى أمرهـا عن الجميع. أخذ بعضَ ما أهداه الملك من حُليّ يُغنيه ثمنهـا ما تبقّى من عمره ولو أسرفَ وبدَّد. تسـلّل من بين أيديهم وهم لا يشعرون، وراحَ يتأمل لمرةٍ أخيرة قصر الحكاية، رخام الممرات ومخمل الستائر، وزينة الوجوه المخيفة على نور المشاعل، والأميرات جالسات صفًّا واحدًا في انتظار إعلان النتيجة، ومِن ورائهن تتراص أيضًا أخواتهن الأخريات اللواتي خرجن من السباق. يتأمّل الملك العجوز الذي لا يزال مُتشبثًا بخيوط كل شيءٍ بين أصابعه وكبير الوزراء والوزراء والحكماء والمستشارين، وتخيلهم يضحكون ويمرحون وهم سُـكارى، يتناوبون العبثَ بطفلةٍ قَعيدة وهي تصرخ مسـتغيثة، لكن قضبانهم تخذلهم؛ ربما لعَجزهم، أو لأنهم تمادوا في الشراب، أو لعلّهم مَا عادوا إلَّا ظلالًا وأطيافًا في حكايةٍ قديمة سوف تظل تطارده على الطرقات حتّى يُوهَب رحمة النسيان.

فيـما بعد، قيلَ إن بعض الحَرَس تهيأ له أنه يرى جوادًا مِن أحب خيول الملك، وهو يخبّ وحده، بكامل عدّته وسرجه، يخرج من الإسطبل وحيدًا ويمـضي قافزًا الأسـوار في اتجاه الغابة. وأضاف مَـن زعموا رؤيته في ليلة

الاحتفــال الذي لم ينتهِ إلى شيء إن سَــواد الحصان كان يلمع تحت النجوم كأنــه قطيفة تتموَّج، وينبعــث مِنه صوت صفيرٍ بشري يــردّد لحنًا حزينًا، فتأكّدوا عندئذٍ مِن أنه إنسي مسحور أو روحٌ تعيسة هاربة.

مفقود في الترجمة

لفترةٍ طويلة ظللتُ سجينًا في عالَمٍ خيالي فَظ، أصحو وبجانبي ذات الرداء الأحمر وأنام في حِضن الجميلة النائمة، وبينهما أقضي اليوم مُتنقّلًا بين بقية أعضـاء العائلة الملعونة في بلادٍ لزجة ومقرفة يُفتَرَضُ أنها أرض السِـحر والعجائب.

على مدى شـهورٍ مُتواصِلة انهمكتُ في ترجمة قصص الأطفال العالمية الشـهيرة؛ عشرات العناوين منها، بعضها يتكرر بالتناوب مع اختلافاتٍ طفيفة من حيث الـحَبكة أو الرسوم المصاحبة أو عدد الصفحات، لكنها تبقى هي نفسـها. وفي لحظةٍ غير محـدَّدة مِن تنفيذي لتلـك العقوبة، وُلدَ قِطُّ الضَجر وأخذ ينمو ويتمطَّى حتَّى شَـبَّ واشتدَّ وصارَ فَهدًا يحوّم من حولي، منتظرًا الفرصة السـانحة لينقضَّ ويـضرب ضربته، فينتهي أمري وأصيرُ داجنًا أليفًا ما تبقى من عمري، وأعتاد الضَجر كأنه طبيعة الأمور وسُنَّة الحياة.

كنتُ واقفًا آنذاك بين عالمين، قدمٌ هُنا وأخرى هناك، مفشوخًا بطريقةٍ ما.

أعدُّ نفسي لتَغييرٍ جِذري لا رجعة عنه. أوشكُ أن أتخلَّى بكامل إرادتي عن جنَّة الحرية والفوضى والانفراد بالنفس، لأدخل بقدميَّ جحيم الاستقرر والنظام المسمَّى عادةً بالحياة الأسرية. مشاعرُ عدة تناوبت عليَّ بينما أقترب من ذلك التغيير، مزيجٌ من الخوف والقلق والتفكير في الهرب، وأيضًا شيء من اللهفة والفضول والرغبة في إتمام الأمر بأسرع وقت ممكن. لم أنجح في تجاوز ذلك كله إلَّا بالانخراط في العمل، فحل جاموس في ساقية معصوب العينين، لكي أنتهي أولًا بأول من ترجمة قصص الأطفال التي ظلَّت تتدفق بانتظام من شركة الترجمة إلى بريدي الإلكتروني، وسارَ كل شيء كما نشتهي إلى أن وُلدَ ذلك القِط، غير مرئي ربَّما، لكن لا سبيل لإنكار حضوره أو تجاهله.

مِثل تاجرين شابين يتشاركان في تأسيس محل بقالة، كنتُ وخطيبتي نقضي كل الوقت المتاح في إعداد عُش الزوجية كما تسمّيه الدواجن التعيسة وهم غافلون. وقد انتهى بيننا تمامًا زمان التودُّد والمشاغلات واتصالات ما بعد منتصف الليل وتبادل أغاني الحب الناعمة، وكل تلك القشرة الوردية سهلة الغَسل. أنا أصلًا لم أكن شديدَ الوَلَع بشُغل العواطف ذلك كله، لكنه كان تغييرًا لا بأس به في صحراء حياتي كصعيدي مغترب، يعيشُ ذئبًا مُتوحدًا وسط عشوائيات العاصمة القبيحة منذ أكثر من عشر سنوات. ولم أُقدم على خطوة الخطوبة إلَّا تحت وطأة جوعٍ جنسي لم تعد ترده الوجبات

الشَّحيحة المخطوفة، بكلفتها ومخاطرها وما تخلّفه غالبًا من خَواءٍ وقَرف. لم يكن الجنس هو دافعي الوحيد مع ذلك، لعلَّها تلك الرغبة الأنانية المبثوثة في جينات أبناء النوع الإنساني، رغبة أن أصبحَ أبًا وربّ أسرة ولو كان ثمن هذا أن أصبح مثل بقية أبناء النوع الذي طالما حملت له خالص الاحتقار، أي أن أصير حبيس قفصٍ في حديقة حيوانات المجتمع، لا أنياب ولا مخالب، فُرجة أو على أفضل تقدير نمرة في السيرك، أتنطط وأثب وسط حلقات النيران، لأضمن اللقمة والهدمة والدواء.

كانت خطيبتي مُترجمةً زميلة في الشركة ذاتها، لكنها على عكسي لا تزال تذهب إلى مقر الشركة وتعمل بدوامٍ كامل، حيث تُراجِع الكتب المترجَمة قبل تسليمها لَمرحلة التصحيح اللغوي، بينما فَضَّلتُ أنا منذ فترة طويلة أن أعملَ مِن البيت بلا راتب ولكن بنظام القطعة، لأوفر على نفسي عذابَ الصحيان مبكرًا والاغتسال، ومُعضلة العثور على ثيابٍ نظيفة ومكوية، ثم جحيم المواصلات ومحنة الابتسام وتوزيع التحايا في وجوهٍ عكرة، مِن قبل حَتَّى أن أضبطَ مزاجي بالشاي الثقيل وبعض السجائر. وهكذا صار عندي فائض وقت لا بأس به بالمرة، كنتُ أستغلّه، قبل مشروع الزواج على الأقل، في القراءة الحرَّة بعيدًا عن الكتب والنصوص الساذجة والسخيفة التي أترجمها لأكل العيش، ثم صرتُ أخصص كل وقت فراغ في مشاوير ومهام تجهيز شقة الزوجية، وحرمتُ نفسي حتَّى من هدنة القراءة لكي أفوز في النهاية بجائزة البيت والزوجة والعيال.

قبل ذلك بفترة طويلة، كان بعضُ رؤساء الأقسام السابقين في الشركة قد شَـمَّوا رائحة أسـلوب مميز في ترجماتي، ثم اطلعوا من خلال تحرياتهم الخاصة على ميولي الأدبية مِن أيام الدراسـة الجامعية، ومحاولاتي القديمة والمُجهضة في كتابة بعض النصوص التي كنتُ أنسبها زورًا إلى فنون مِثل الشِّـعر والقصـة، محاولاتٍ وَأدتُهـا بنفسي في مهدها؛ إذ اكتشـفتُ مُبكرًا قصور موهبتي وإمكانياتي، وأنَّ احتراف الأدب طريق مؤكد نحو ترسيخ ميـلي الفطري للعزلة، وتمهيد أجواء حياتي للنقمة والرثاء للذات، وغالبًا ما تنتهي بساحة الفشل الذريع مع إنكار الحقائق وإلقاء اللوم على الظروف والآخرين والمجتمع والناس. المهم أنهم صاروا في الشركة يُرسلون إليَّ مِن غير تفكير أي طلبات شُغْل تَدَّعى أنها كتب أدبية، ولو كانت مجرّد روايات جريمة وملخَّصات رديئة ومخلّة لبعض الكلاسيكيات. ثم وصلنا إلى مِحْنة سلاسل قصص الأطفال العالمية، التي جلبتْ لي الهلاوس ودفعتني للشك في كل شيء وأعادتني لتعاطي الحشـيش، قبل أن أجدَ سـبيلي وَسطَ غابة رسوماتها الملوّنة نحو الانعتاق المقدَّس، وذلك النوع مِن الفرح الذي يعتبره كثيرٌ من سُجناء دُنيانا جنونًا صريحًا.

في البدايـة رحَّبـتُ بالصَّفْقة طبعًا، إذ ما أسـهلَ القضاء على عشرات الصفحات من تلك الحكايات المعروفة في سـهرة عَمل واحدة، بصورها الكبـيرة وكلماتها القليلة في كل صفحة، طبعًا مَع الوضع في الاعتبار أنني

أحاسَب بالكلمة في نهاية الأمر. راحتْ النُّسَخ الإلكترونية تَرد على إيميلي دفعةً بعد أخرى، وبعد أيام قليلة تأخذ طريقها العكسي إلى الشركة في ترجمتها العربية، وقد توهمتُ في بادئ الأمر أنَّ كل شيءٍ في موضعه الصحيح وأن المستقبل الباسم ينتظر على الأعتاب وهو يضبط البابيون الملوّن.

وبينما أُنصتُ لقَرقعة أصابعي على لوحة المفاتيح تختلطُ بقائمة مفضلّاتي الموسيقية، أخذتُ أتخيل نفسي وأنا بعد سنة أو اثنتين أقرأ بعض تلك الحكايات على طفلةٍ جميلة مثلًا، فيها مِن ملامح زوجتي وملامحي معًا، كأنما امتزجنا معًا في خَلّاط جيناتها. لكن سرعان ما نضبَ خيالي وسئمتُ هذه اللُّعبة، وانقطعَ فجأة شهر العسل مع حكايات الأطفال التي راحت تتكرر مثل ضربات سوطٍ لا يرحم. تتكرر برسومات وصور مختلفة، تتكرر بصيغٍ جديدة، تتكرر بكلماتٍ أقل أو أكثر، لكنها تبقى في ذلك كله هي هي. ومع كل ملفٍ جديد يصلني، أفتحه وأنا أتمنَّى لو عثرتُ فيه على أي مَهمة عملٍ أخرى، ولو كانت كتابًا مكتوبًا بأسلوبٍ غبي معقرب، يتحدَّى أعتى المترجمين، المهم ألَّا أجد أمامي نفس تلك المخلوقات مرة أخرى، سندريلا مثلًا، آه كم كرهتُ بنت القَحبة تلك، التي رأيتُ لها عشرات الصور، وترجمتُ قصتها في عشرات الصيغ، لكنها تبقى في كل مرة هي هي، وظللتُ أتعجَّب كيف لا يكره جميع أطفال العالَم سندريلا؟ ثمَّ كيف نُرضعُ أطفالنا هذا الهُراء؟ وأي مستقبلٍ ينتظر ابنتي التي لم تصل

إلى الوجود بعد –هذا إذا وصلتْ ذات يوم– إذا تربَّت على حكايات مثل سندريلا؟

عندئذٍ تقريبًا، وُلدَ ذلك القِط، شـيطان الضَّجر الأليف، متناسـخًا في دوّامةٍ مِن المرايا، كنتُ أنا سجينها الوحيد، تحتشد زنزانتي الضيّقة بالصور والأصوات، أكاد أختنقُ بين شخصياتها الخرافية، بوجوهها الجميلة الباسمة وأجسادها الصغيرة المكتنزة وأصواتها الرفيعة الحادة تتنادى وتتشاور وتتهامس، صيحات واستغاثات وتهديدات، وخليطٌ نشاز من موسيقى أفلام والت ديزني راحَ يطنّ في أذنيَّ كاسحًا أمامه موسيقاي الحبيبة. مع تضييق الخِناق عليَّ، أعدتُ الاتصال بمورّد الحشيش القديم، مُتمنيًا له أن يكون في خير حال ولا يـزال يمارس مهنته النبيلة رغم أنـف الكارهين. أجاب اتصالي وقابلتـه وأنجزت، لكنَّ الأنفـاس زادت المبلة طينًا، وبدأتْ صور العقل وأصواته تتجسَّد من حولي واضحةً شامتة. وَجدتُ نفسي أسيرًا بينهم وأنا مضبوط الدماغ مثل شيخٍ بطيء الحركة يُعاقَب بالخروج في رحلة مع ألف مراهق مُصابين بفَرط النَشاط.

لم أجد مفرًّا من الاعتراف لخطيبتي بأحوالي المُريبة، ولم أتبيَّن كَم كانت أوهامًا هشَّــة إلَّا عندما حاولتُ أن أصوغها في عباراتٍ واضحة، لأشرح حالتي المُضطربة لشريكتي في دكّان بقالة المستقبل. لكنها مازحتني وضحكتْ واسـتهانت بالأمر، وربما قالت إنها أعراض خوف طبيعية تسبق أي نقلة

كبيرة في حياة الإنسان، ثُمَّ إنَّ كلها كَم دُفعة إضافية من حكايات المساخيط تلـك ويكتمل المبلغ الكافي لكي يكون حفل الزفاف وشـهر العَسـل كما نحلم بهما تمامًا. وكانت تقصد كما تحلم هي بهما تمامًا، فأنا لم أعد أذكر غير الكوابيس، وأحسسـتُ أنني في وادٍ وهي في واد، ويئستُ من أن أجد أي عونٍ لديها أو لدى أي شخصٍ آخر. بوَحيٍ مِن طبيعتها العَمَلية، حرصتْ عـلى طَمأنتي قائلة بأنها هي مَن تُراجـع القصص مِن بعدي، وهكذا فإذا ارتكبـتُ أي خطأ أو زَلَّة، (أذكـرُ أنها نطقتْ كلمة زَلّة فصيحةً صحيحة، وأذكرُ أنني أردتُ أن أخبرها بأنَّ مِن بين مَعانيها العُرْس والوَليمة، لكني لم أفعل)، أو تسرّعتُ واختلط عليَّ أي شيء سَـهوًا، فلا داعي لأن أشغل بالي؛ لأنها ستكون في ظهري، وسوف تفتحَ عينيها تمامًا وهي تراجع؛ لأنه مـا مِن عينٍ ثالثة تقـع على تلك القصص فيما عدا عيني وعينها، إذ أكَّدتْ لي أنهم في الشركة مِن فرط ثقتهم في سـلامة لغتنا العربية صاروا يرسلون الملفَّات للناشر ومنه إلى المطبعة. رُبما كان كلام خطيبتي هو الأساس الخفي وراء جرائمي التالية التي حررتني من جميع الأشباح، بما فيها أشباح الحياة الأُسريـة الوديعة وأطفالنا الذين أوصـدتُ الأبواب أمام وجودهم دون ذرةٍ من ندم.

أذكرُ الآن أن خطيبتي السابقة، وبينما كانت تتحدَّث إليَّ في ذلك النهار، كان وجهها يتخذُ أشكالًا غريبة في عينيَّ، كأنه يتحوَّل ويتبدَّل في لحظاتٍ

خاطفة، ثم لا يلبث أن يعود كما كان في لمح البصر. ربما كانت تلك الرؤى الوامضة امتدادًا للهلاوس التي تركتُها خَلفي في البيت. في أثناء لقائي معها كانت تبدو لثوانٍ في الأحوال التي ستكون عليها بعد يومٍ من الدُّخْلة، وخلال استغراقها في النوم بعد أسبوعٍ من الزواج، وبعد صحيانها مباشرةً بعد شهرٍ مِن انقضاء شهر العسل، ثم وهي تلد ثم وهي ترضّع، ثم وهي تتهرّب من لقاء الفِراش بحجة أن عندها عُذر، ثم بعد سنة وهي تلومني على قلة حيلتي وتقاعسي وسهري بالخارج وشراء الكتب بإسراف وتعاطي الحشيش، ثم وهي تبكي وتصرخ وتسبني وتسب أهلي لأنَّهم دلَّلوني كذَكرٍ وحيد. خلال لقاءاتٍ تالية معها، كان وجهها يصير في عينيَّ أقرب ما يكون إلى وجوه الشخصيات الكارتونية في قصص الأطفال التي لا أغادر أمانَ شقتي الصغيرة إلَّا هَربًا من تقافزها وثرثرتها. المرسومة بخطوطٍ حادة وصريحة وألوان فاقعة، ذات الأعين الكبيرة الواسعة، الأشد اتساعًا مِن أي منطق وأي مقياسٍ للجَمَال مهما شطح به الذوق.

مِن حضيض اليأس بانَ لي خيطُ نورٍ ينزل عليَّ في الأعالي، وهمسَ بأذني عفريتٌ طيّب صغير بأن أطمئن وأهدأ، وأن أدعَ القلق وأبدأَ اللعب، بل أن أستسلمَ للعب بكامل كياني، ولن يكونَ عليَّ بعد ذلك أن أدخلَ في أي حربٍ مع مخلوقٍ أو صورة أو فكرة. لم أهتم كثيرًا، في لحظة الوحي هذه، أن أفهمَ المقصود بالاستسلام للعب، لكنَّ طمأنينةً كَستني فهدأت

ونمت كما لم أنم منذ شهور، ثم صحوتُ منتعشًا واغتسلت ورحت أرتّب أشيائي وأوراقي وكتبي وأنا أترنَّم بأغنياتٍ شرقية قديمة مستبدلًا بكلماتها البريئة شتائمَ وتعبيراتٍ فاحشة كما اعتدتُ أن أفعل عندما أكون رائقَ البال. ثُمَّ بين الساندوتش والقهوة والسجائر عاودني الوحيُ الذي لطالما كفرتُ به وسخرتُ مِمّن يتحدثون عنه، إذ عرفتُ ما هي لعبتي وكيف سأفش غِلّي.

عاريًا أمام لاب توبي الحبيب، أترجمُ الحكايات الخرافية بنصف عقلٍ فقط بعد أن حرضتني شريكتي في الجريمة على الاستهانة، وبنصف عقلي الآخر أختلقُ عالمًا موازيًا من نفس مادة الحكاية التي أعمل عليها، جاعِلًا مِن شخصياتها مسوخًا حقيقية ليست مثل تلك الوحوش الجميلة في الصور، كانت مسوخي تتسم بجمالٍ مجلوب من عالمٍ آخر، جمال قد يبدو للحظة عابرة مقرفًا أو شائهًا، لكنه ينطوي على ذرّة حقيقة صلبة وناصعة. وكانت لتلك الشذرة التافهة من الحقيقة في عينيَّ فتنةٌ لا تُقاوَم، فتنةٌ مِن المُستحيل أن يقدّرها ويستجيب لها شخصٌ آخر سواي؛ لأنني كنت مبدعَ هذا الكائن الأوحد والفريد، منتجه ومستهلكه وخادم شياطينه المتواضع الأمين.

ثُمَّ سألتُ نفسي ذات ليلة بصوتٍ خفيض، وأنا أحرّك جسمي في جولة قصيرة حول البيت متنسمًا هواء منتصف الليل المنعش: ما الذي أفعله بحياتي؟ إلى أي هاويةٍ أجرُّ نفسي الآن؟ ولماذا أستسلم لسندريلا

بنت القحبة؟ وكيف ابتعدتُ عن الكتابة التي كانت الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي كلها؟ وهل حقًّا لا تزال هناك فرصة أخيرة للتراجع؟ وسرعان ما أنسى كل تلك الهواجس بمجرّد أن أرجع للبيت وأنفرد بالقصص وأواصل لعبتي الذهنية مع شخصياتها، اللعبة التي أراحتني أيامًا لا بأس بها، وعقدتْ هدنة مؤقّتة بيني وبين الأشباح. وحتَّى عندما اتخذت اللعبة منحًى فاحشًا لم أخجل أو أجفل. في خيالي، كنتُ أنفرد بجريتيل، مِن وراء ظهر أخيها هانز، حتَّى تستسلم لمداعباتي. أو أهمسُ بالكلام البذيء في أذن الشقراء الصغيرة جولدي لوكس، أو أطارد زوجة الأب الشريرة وقد تنكّرت في زي بائعة تفّاح عجوز في الغابة، كاشفًا عنها تنكّرها ونازعًا عنها ثيابها، وضاحكًا مِن ترددها بين الفَرح باشتهائي لها والغضب لأنها أضحتْ لُعبةً في يديَّ. تلصّصتُ على عروس البحور الصغيرة وهي تَتشمَّس على رمل الشاطئ وتستمتع باعتصار ثدييها العاريين، وأطلقتُ حفلات جنسية جماعية بين سنو وايت والأقزام السبعة، ثم بين ذات الرداء الأحمر وجميع مخلوقات الغابة، بينما اختلى الذئبُ والحارس بالجدّة وربطاها من أطرافها الأربعة فوق الفراش. لعبتُ بهم ألعابًا لم أكن أتخيّل وجودها في داخلي ولو لحظة، فكأنَّ أسلافًا متوحشين انتفضوا فجأةً خارجينَ من تحت جلدي ولم تزدهم جميع قيود الحضارة إلَّا نَـهَمًا وتَمَاديًا.

كنتُ أجدّد سُبلَ المتعة المنفردة التي عرفتُها مِن غير مُعلِّمٍ منذ أن بلغتُ

الـحُلُم. أعدتُ التعرُّف على قضيبي كأنه أصبح واحدًا مِن تلك المخلوقات المتأرجحة بين الواقع والخيال، وتشبثتُ بالاستمناء كأنه صديق عزيز موشك على السفر. لم أعد بحاجة للسياحة مُطوَّلًا بين المواقع الإباحية حتَّى أتخيَّر الفيديو الملائم لمزاجي، إذ أصبحَ تحت تصرّفي مخزون لا ينضب من الصور المتحركة، وكلها مِن صُنْع يديَّ، تتغيَّر وتتحوَّل بقوة العقل وحده. امتزجت اللذة المنفردة بشيءٍ آخر، كأنه الإبداع أو الفن أو الاختراع، ولا أخجل من ذِكر هذه المعاني الجليلة في هذا السياق، فقد سقط الـحَيَاء من بين ضحايا المعركة الفاصلة.

وحينما تمطَّى فهدُ الضَّجر مُستيقظًا في زاويته المعتمة مرة أخرى، كنتُ أعرفُ تمام المعرفة ماذا عليَّ أن أفعل لكي يتبدّد في هبّة هواءٍ عابرة. لم تعد ألعاب الخيال الصامتة تُشبعني، وحان الوقت لتنزل اللغة إلى الحلبة. وبدأتُ أتدخَّلُ في سياق الحكايات التي أترجمها، أدسُّ بعض اللمحات المتوارية والتفاصيل الهيّنة، بين الحين والآخر، على استحياء وفي عجلة، ثم أنسى ذلك الشيء الصغير كأنه عملة بلا قيمة سقطت مني في زحام المواصلات، لكنها رغم ذلك قادرة على تفجير مدينةٍ بكاملها. بمقادير ضئيلة للغاية، مقادير مِن المستحيل أن يلحظها أحد، كنتُ أسرّب نفحاتٍ مِن التهتُّك والـجُنون والقُبح والعُنف. وكنتُ أشعرُ بأنني ألعبُ الآن لعبةً ثنائية، إذ لا يطّلع أحد على تلك المخطوطات إلَّا خطيبتي، ولعلَّ الأمر كله لم يكن

إلَّا رسائل موجهةً إليها هي وحدها، رسائل غرامٍ مِن طراز فريد، أو رسائل تهديد ووعيد وشفرات مُنذرة بقنابل موقوتة عليها أن تعثر عليها وتبطل مفعولها حتَّى تكون جديرةً بالاقتران بي.

شيئًا فشيئًا اشتد عودُ الإشارات اللطيفة، فتَسقط قطرة دم غامضة المصدر بين سيقان الأميرات الراقصات مع أقرانهنَّ من أمراء الجِن، أو تطول قبلةُ الأمير للجميلة النائمة أزيدَ مِن المقبول وقد يمدَّ طرف لسانه لاعقًا عُنقها. ألعب وأستمتع وأكاد أرقص فرحًا، أترجم وأكتب وأرسل الإيميلات وأتلقى الرد، والملفات تأتي بالإنجليزية وتذهب بالعربية، وملفاتٌ جديدة تصل دون أن يقع ما يسوء، فشعرتُ بشيءٍ مِن الاستفزاز لأن كل شيء يبدو على ما يُرام، وكأنني أكلّم نفسي. في اتصالاتي ولقاءاتي بخطيبتي لم تشر إلى أي شيء غريب، فإمَّا أنها تتعامل معي الآن كمجنون رسمي وتُخفي عن الجميع، حتَّى عن نفسها وعليَّ، ما أقترفه في حق الطفولة والبراءة والمستقبل المشرق، وإمَّا أن القحبة لم تعد تراجِع الحكايات بالمرة، وصارت توفّر وقتها لمهام عمل أخرى لترفع دخلها الإضافي، فربما تتمكّن مِن شراء ثوب زفاف أروع وأغلى ثمنًا من كل فساتين صاحباتها، فستان أميرات كما يظهرن في القصص الخرافية تمامًا، الأميرات اللاتي عرّضتُ بعضهنَّ للاغتصاب تحت ناظريها دون أن يطرف لها جفن. لعلَّها حتَّى لم تعد تفتح الملفات، فترسلها كما تستقبلها مِني إلى مُنسقي الكتب، ومِنهم إلى العميل

الذي يرسـلها للطباعة وكله اطمئنان وثقة. أدركتُ أنني حتَّى إن جعلتُ بينوكيو يسـتمني نشارة خشـب وهو يفكر في الجنية الزرقاء، فلن يتحرّك شيء ولن تنقلب الدنيا على رأسي، في الوقت الراهن على الأقل.

لم أروِ هذا كله إلَّا لأكشف ظروف إنتاج هذا الكتاب الذي بين أيديكم، وإذا كنتم تقرؤون هذا الآن، فلا بدَّ أنَّ خطتي اكتملت حتَّى النهاية، وأكملت هذياناتي طريقها حتَّى محطتها الأخيرة على أرفف المكتبات، تحديدًا في الركن المخصص لكتب الأطفـال. وربما تناوله أحدكم من على الرف وحمله إلى البيت في نفس عربة التسوّق الممتلئة بالبقالة ولوازم البيت، دون أن يعرف أنه يدعو سفَّاحًا لينام في غرفة أطفاله.

بِعتُ عشَّ الزوجية الذي ليس إلَّا سجنًا مزوقًا، بكل ما فيه من أثاث وأجهزة، وسوف أرسل لشريكتي نصيبها نقدًا عبر أحد الزملاء، وسوف أهجـر هذه العاصمة القبيحة إلى الأبد، لكني لن أعود إلى قرية أهلي رغم ذلك، فـلا جدوى من الرجوع إلى الوراء. ربما أبدأ حياة جديدة في مدينة صغيرة، يكون بها بحر أو بحيرة ومراكب صيد وصيادون، وربما أشـتغل في أي مهنة بسيطة ببدني ويديَّ، سأرهق نفسي بقدر ما أستطيع، على أمل أن يصفـو عقلي في آخـر النهار، لكي يفتح الله عـليَّ بصفحة أو اثنتين كل يـوم، أكتبها بخط يدي وأخبئها عن النـاس، كأنها كنزي الوحيد وكأنني أبخل أهل الأرض.

وإذ أتأهّب الآن لإرسال هذا الملف الأخير، وإنهاء هذه اللعبة التي أطلقت سراح الضواري في داخلي، هذا الملف الذي كتبت جميع محتوياته بنفسي، دون أن أترجم كلمة واحدة، أشعر أن مهمتي اكتملت وأن رحلتي بدأت، وأفهم لأول مرة ما يتحدث عنه بعض المتصوفة والنسَّاك عندما يحاولون وصف تجارب روحية مُفارِقة، حيث تفرغُ النفس ويصمت العالَمَ، فلا يتبقى في الداخل أو الخارج صوتٌ أو شيء.

وربَّما يكون هذا الكتاب موجهًا لي أنا، قبل أي شخص آخر، ولكَ أنت أيضًا، وليس لأطفالك طبعًا، فقط إن كنت ناضجًا بما يكفي، فقط إن كنتَ مستعدًّا لأن تسير وحدك في الصحراء ليلًا، أن تسير في تمهلٍ حتى تبلغ البئر الوحيدة هناك، وأن تكشف غطاءها بنفسك، وأن ترى وجهك يقترب منك بينما تشد حبل الدلو، وأن تتأمّل انعكاس النجوم على صفحة الماء فترتوي عيناك قبل أن تروي ظمأك، وقبل أن يغريك مذاق أول رشفة بالنزول إلى قاع البئر، معي.

مهمّة البحث عن عندليب

لم يبقَ لنا إلَّا حكايات نستعينُ بها على الطريق، يزعمون أنها أباطيل، ونوقنُ بأنها الموعد والملاذ. صرنا فئةً قليلة، نعيش حياة التخفي والتنقل والكتمان، نحنُ مَن لا نزال نصدّق قِصّة الإمبراطور القديم وعندليبه الأوَّل، ونؤمن بالحياة التي عاشها أسلافنا الأولون ونسعى لاستعادتها ذات يوم.

تَبدّد كلُ أثرٍ للماضي الذي نسمعُ عنه فقط، بكوارث مِن صُنع البشر أولًا، ثم تجاوبتْ الطبيعة وأخذت تلتهمُ نفسها بنفسها، فلم يتبق لنا إلّا حكاية نرددها ونحاول أن نحفظها في صدورنا، عسى ألّا يذوي في النُّفوس كلُّ شوقٍ لمنظر الأفق المفتوح على زرقة البحر وخضرة الحقول وأصوات الطيور الحقيقية، بدلًا مِن تلك اللُّعَب المعدنية المبثوثة الآن في كل موضع.

نحن بالنسـبة لهم حفنة من السذج الحالمين، إن لم نكن المارقين مقترفي الفظائع. هُم الأباطرة الجدد وتجّار السلع الملوّنة وأسياد الأسواق الرائجة. ومـع ذلك فمِـن بينهم خرجَ مَن يقودنا ويرشـدنا، مِن بين المفسـدين في الأرض ظهر لنا من يسـاعدنا ولـو سرًّا، من بعيد ومن موضعه في الظل،

متظاهرًا بأنه ابنهم وظَهيرهم، ولو عرفوا حقيقته لأحرقوه حَيًّا بتُهمة الخيانة العظمى ومحاولة قَلْب نظام العالَم، ولم يخن إلا أرباحهم وبنوكهم ولم يهدّد إلا عروشهم.

لكنه عندنا المرشد الوفي، لا يزال -مثلنا- مخلصًا للماء الصافي المتاح للجميع، قبل أن تلوّثه مصانعهم، ثم تستولي عليه شركاتهم، وتعالجه كيميائيًّا، ثم تبيعه للناس بالقطرة. إنه آخر أحفاد الإمبراطور القديم المذكور في حكايتنا، ذلك الذي شعرَ بالوحدة وصادقَ عندليبًا، وكان أوّل مَن صَنعوا له طائرًا آليًّا ليسلّيه ويُغنيه عن صديقه الحقيقي.

**

تروي الحكاية القديمة -التي لم يعد يصدّقها أحدٌ الآن- أنَّ الإمبراطور لم يكن يعرف حدودَ قصره ولا ما تحتويه حدائقه المسيَّجة ولا بساتينه المفتوحة على الغابات والبحيرات.

كان الزوّار والسائحون يتوافدون مِن كل بلاد العالَم ليشاهدوا عجائب مدينته الملكية، أمَّا هو فلا يكاد يبارح موضعه، بعد أن أثقلت قلبه الحروب والفتوحات، وربما كان يخشى لو أنه ابتعد خطواتٍ عن عرشه لاختفى وانتزعه منه خصومٌ يجهلهم. كان يكتفي بالنظر من النوافذ وإحصاء الأيام وإصدار الأوامر والقرارات وتوجيه حملات التأديب الضرورية بين الحين

والآخر، واضعًا كل ثقته في أبنائه وقادته المقربين. وأحيانًا كان يختلي بنفسه في مكتبته العامرة؛ لكي يتجوَّل في الدنيا بين صفحاتها ليستعيد مذاق التجوال الأوّل في عافيته ومجده.

كانت مكتبته صغيرة للغاية، لا تتجاوز عشرات الكتب، فقد كان يتسلّى بـإضرام النار في أعداد هائلة من المجلّدات الفاخرة التي ترد إلى قصره مع مطلع شمس كل يوم، وكان اختياره لما يقرأ وما يحرق عشوائيًّا تمامًا، وتلك كانت لُعبته الوحيدة المتبقية. غير أنّ قلبه لم يكن يطاوعه بإحراق أي شيء كُتبَ عن مملكته التي تتوسع مع مطلع شمس كل يومٍ كذلك.

إلى أن وقعَ بين يديه ذات يومٍ كتابٌ يصفُ قصره وعجائب مملكته، ألَّفه شـاعرٌ أسـطوري ورحّـالة فريدٌ من نوعه، في صفحات قليلةٍ استهلَّ بها عمله، تناول حياة الإمبراطور ومنشأه وتاريخه وبطولاته، إشارات سريعة كأنـه كان يهربُ بها مِن واجبٍ ثقيل، ولم يَسُرَّ ذلك الامبراطور الذي تمنى لو كان بمقدور الكلمات أن تعيدَ له بعضًا مِن فتوته وأن يرى نفسـه بعين خياله وهو يقود جيشـه الصغير في أولى معاركه عندما هزم شـقيقه وقطع رأسه ورفعه على حَد سيفه المقوّس هاتفًا: هكذا نكتب التاريخ، الآن نبدأ التاريخ.

ثم انتقل الكاتب إلى وصف ما تحويه المملكة بسرعة وبلغةٍ جافةٍ وباردة،

فاشــتدَّ انزعاج الإمبراطور القارئ، وقال لنفســه إن ذلك الكاتب يمدح وكأنــه يذم ويريــد أن يوحي بأنه رأى في بلادٍ أخــرى ما هو أروع وأبدع، كأنَّ كل تلــك العجائب المجلوبة من أركان الأرض الأربعة عجزت عن إدهاشه ولو قليلًا. وإذ كان الإمبراطور القديم يعتمد على قراءة مثل تلك المؤلفات لكي يكتشــف هو نفسه ما يحتويه مُلكه، فقد أصابته الخيبة وكره ذلك الشــاعر، بل فكّر في أن يأمر بمعاقبته لاســتهانته بأعظم إمبراطورية وُجدتْ على ظهر الأرض.

لكــنَّ مفاجأة أخيرة كانت تنتظره قبل أن ينتهي الكتاب، فقد خصَّص ذلك الشاعر صفحات وصفحات لوصف شيء واحد فقط، مخلوق صغير للغاية، أتفه من أن يتوقَّف أمامه أي إنســان عاقل وهو يســعى في حدائق وبساتين إمبراطورية لا يعرف حدودها إنسان. ختمَ الشاعر الرحّالة عمله بوصف عندليبٍ رماديّ يغني قُربَ واحدٍ من بساتين الملك، وعند بحيرةٍ صافية، وزعمَ أنّه جاب الأرض المعروفة حتى الآن فلم يترك بلدًا إلّا زاره وساحَ في مدنه وموانيه، ورأى ما لا يرد على قلوب الإنس والجن، لكنه في حياته كلها لم تقع عيناه على مخلوق أرق وألطف من ذلك الطائر الصغير، ولا سمعَ تغريدًا أعذب من صوته الشجي، وقد جعل الإنصاتُ إلى تغريده قلبه يتقطّر بالحنان وعيناه تغرقان بالدموع، حتى قرَّر أن يترك متعة الأسفار ويعود إلى بيت أهله الصغير في بلدته القديمة، لينام مستريح البال مستعدًّا للموت في سعادة.

نسي الإمبراطور كل سخطه وتوقّف طويلًا أمام وصف العندليب، لا بدَّ أن ذلك الشاعر فقد عقله وإلَّا فما معنى أن يرقد المرء مستعدًّا للموت في سعادة؟ عجز الإمبراطور عن النوم، ونهض مرةً بعد أخرى ليعيدَ قراءة تلك الصفحات الأخيرة، ما معنى أن يتقطّر القلب بالحنان وتدمع العين، بدت لـه مثل أوهامٍ غامضة، لا تجري إلّا في المنام، ولا وصول لها إلّا بنومٍ عميق لم يعد يزوره، أو بشُرب خمورٍ قوية لم يعد قلبه يصمد لها. هل يوجد هذا الطائر حقًّا في مملكته، وكيف لم يسمع به قبل هذا اليوم؟

استدعى حاجبه وأعطاه الكتاب ليقرأ ما جاء في صفحاته الأخيرة. ثم أمـرَ بالعثور على ذلك العندليب وإحضـاره إليه بأي طريقة، فهبَّ رجال الحاشية والحرس والخدم يُفتشون ويتسمّعون تغريد الطير هنا وهناك لأيامٍ بلا جدوى.

**

لم يكن طريقنا معبّدًا ولا عيشـنا هينًا قَـط، طالما رضينا بأن نحمل الأمانة ونؤدي الرسالة ونسعى في الأرض لإيقاظ الغافلين. أحيانًا نشفق عليهم، فنقول هُم أهلنا وناسنا، نَوَّمتهم الدعاية وحوّلهم سَحرةُ القَصر إلى دواجن في أقفاص، تنتظر الأطعمة الملونة المُشـبَّعة بالسـموم اللذيذة، حَتى نسوا طعم الثمرة المقطوفة من الشجرة وقد استوت وطَابت، بالشمس والطين والمـاء، وقالت للرائـح والغادي أنا هنـا في انتظار أن أمتعـك وأُقوّتك.

وأحيانًا أخرى ننقم عليهم، كأنهم جزء مُتمم للقصر والبنك، جزء خارج أسوار الجنة يحلم ويعمل ويموت في صمت. ألا يرتضون المذلة والحرمان؟ ألا يصنعون بأيديهم ما يأكلون مِن قمامة؟ ألا يجرّفون الأرض ويقتلعون النبات؟ ألا يقتلون بعضهم بعضًا لاختلاف ألوانهم وألسنتهم؟ أهؤلاء حقًّا أهلنا وناسنا؟ هل يستحقون أن نعيش غرباءَ ومُطارَدين مِن أجلهم؟

في أوقات الريبة والإحباط تلك نتذكر صوت أميرنا الحبيب وهو ينصحنا ويعظنا كلّما استطاع الهرب من نعيم سجنه بين المفسدين، فيأتي ويذهب مُلثمًا مجهول الهوية. يقول لنا اعلموا أن تضحياتكم ليستْ مِن أجل أي شخصٍ آخر سواكم، بل تعملون لخيركم أنتم أولًا، لتطهير أجسادكم من الشوائب وعقولكم من الأوهام، ليكن هدفكم أنانيًّا بهذه الدرجة، فنحنُ لسنا شهداء ولا قدّيسين، وكلّما مضيتم على السبيل ستجدون لذةً مُتجددة في خدمة الآخرين وتنويرهم. هذا قدركم، ترضونه وتستمرئونه، تتحرّكون في الظلام بينما تتحدثون عن النور، تقتانون بالفتات وتبشّرون بالوفرة، وتمهّدون الأرض ليومٍ عظيم. فلا ندري نحنُ إن كان بكلامه هذا يشجّعنا أو يثبّط من عزيمتنا.

**

سرتْ حُمى البحث عن العندليب في القصر وما حوله، وكل دقيقة تمر تنذر بتفجّر غضبة الإمبراطور الغارق وحده في أسئلة جديدة، ما هذا الكائن

الصغير الذي تغنّى به شعراء العالَم؟ كيف عميت أبصارهم عن الأواني الخزفية وتماثيل المرمر؟ كيف صُمَّت آذانهم عن الأجراس الفضية وتسابيح الكهنة وغناء القيان؟ كيف لم يروا ولم يسمعوا سوى ذلك العندليب؟ ثم كيف لا أعلمُ به، أنا الإمبراطور، مالك كل شيء؟ وقبل أن تنفد أسئلته وصل الخبرُ إلى مطبخ القصر، حيث شابة صغيرة تأتي من قريتها مع فجر وتخدم في المطبخ حتّى غروب الشمس، قالت لهم وهي تقطّع البصل من غير دموع: العندليب، أنا أعرفه، إنه صاحبي، يغرّد لي كل يوم مرتين، مرة وأنا آتية قبل مطلع الشمس ومرة وأنا ذاهبة مع الغروب. يعرفه أيضًا كل الصيادين في البحيرة، وبعض الفلاحين حينَ يذهبون للاغتسال هناك، لكنني الوحيدة التي تفهم لغته، أحدّثه فيجيبني وأفهم ما يقوله وأفسّره للناس، لكن لا أحد يصدّقني، ولعلّكم لا تصدقونني الآن.

تكفَّل كبير الطهاة بالإبلاغ عن كلام تلك البنت البلهاء، عسى أن تكون صادقة فيصيبه شيءٌ مِن الخير. وسرعان ما صحبها الحرس إلى الموضع الذي حدّدته، وجلسوا هنالك ينتظرون. وقبل مغيب الشمس أتى صاحبها الصغير وبدأ يغرّد، واندهش الحرس عندما وجدوا الفتاة تكلّمه فينصت ثم يجيبها بزقزقته. دقائق معدودة وكانوا في طريقهم إلى القصر والعندليب ينتقل من كتف الفتاة اليمنى إلى كتفها اليسرى ويغنّي وهي تغمغم له وتضحك، والحرّاس مندهشون، فكأنَّ هذين المخلوقين الضئيلين لن يمثلا بعد قليلٍ

أمام أعلى العروش وأشدها مهابة. اقترب منهما واحدٌ من الحراس، وكان شـابًّا وسيمًا من أصول قروية هو أيضًا، تحدّث إلى الفتاة قائلًا: لن أسألكِ كيف تخاطبينه وتفهمينه، فلعلّه سحر أو موهبة خصّتك بها السماء، لكني لا بدَّ أن أسألكِ كيف استطعتِ إقناعه بأن يأتي معنا؟

قالت الفتاة بلا تردد: كلّمته عن الإمبراطور، قلتُ له إنه رجلٌ مُسن ووحيـد ولا بدَّ أنه يحتاج إلى صديق واحدٍ على الأقل ليؤنسـه، من غير أن يخافـه أو يتملّقه، فوافقَني وقال لي إن كل الأشـياء والكائنات بحاجةٍ إلى صديق واحد على الأقل.

ابتسم الحارس لكلامها وابتسامتها ولعَظَمتي الترقوة الناتئتين من وراء ثوبهـا الخفيف. التمعت أربعة أعين في العتمة الحانية لأوّل المسـاء، وغرّد العندليب فجأة بأغنية حُب لم يفهم معانيها إلّا البنت، لكنها لم تشـعر بأنَّ عليها أن تترجم كلماتها للحارس الشاب، الذي سار إلى جانبها في صمت كأنه يحلم. انتهت الأغنية فجأة عندما ظهرت أسوار القصر.



لا نسـتقر في موضـع؛ لأن الحجر المتدحرج لا تنمو عليـه الطحالب ولا ينغـرسُ فيه عَلَم ولا يقوم عليه بيت. الحجر المتدحرج نظيفٌ وحُر، لكنَّ الخوف رفيق رحلته.

لـدى كل منعطفٍ أو زاوية قد يظهـر العدو، في أي صورة من صوره العديدة، في صورة شُرطي أو لافتة دعاية، أو قد يظهر العدو على هيئةٍ أبعد ما تكون عن القبح والفزع، على هيئة شـابة جميلة أو شـاب أنيق، شريك حياة محتمل يدعو أحدنا للإقامة والاستقرار وبناء أسرة، ليواصل ما وجدنا عليه آباءنا ويدور في تروس ماكينة استهلاك بحجم كوكب، لكننا لا نحيد، أغلبنا على الأقل ينجح في صد الغواية مُستعينًا بالصبر والصوم والصلاة وتلاوة الحكايات القديمة.

اكتسـبنا براعةً خاصة في فنـون التنكُّر، أيامًا نبـدو مثل غجرٍ يجوبون البلاد لبيع التعاويذ والأدوية السِّحرية، وأيامًا نصير رهبانًا نتسوّل القوت مـن بابٍ إلى باب، لكننا في جميع هيئاتنا نحكـي للناس عن الغابات التي اختفـت والأنهار التي جفّت والحقول التـي تآكلت وتراجعت ثم ماتت تحت أنصاب الطوب والإسـمنت. حين نتكلم عـن الطيور ونصفها لهم لا يصدّقون، فنحاول أن نرسـم صورها ونقلّـد أصواتها، وكثيرًا ما نجد بينهم مَن يستعيدُ ذكرى غائمة لها من حياة سابقة أو من حلم زاره، فيقول إنـه يعرف ذلك الشيء ورآه بل طارَ معه ذات مرة. في مثل تلك الأوقات نصدّق أنه ما من شيء يُمحَى حقًّا مهما اجتهدَ الأباطرة ورفاقهم من التجّار ومُلّاك الشركات، وأنَّ العندليب القديم لا يزال حيًّا، ولو صورة في خيال صبيـة قروية وجهها الجميل شـاحب رغم انتفاخ بدنها بفعل مُكسـبات الطعم والرائحة.

مع مرورنا بكل قرية أو بلد نكسب ونخسر، مثل خصومنا التجّار، قد نخسر رفيقًا لنا شعرَ بأنّ الرحلة أرهقته وبأنه لم يعد يقوى على متابعة رحلته حجرًا متدحرجًا، وإذا اطمئنتْ نفسه لبلدة مررنا بها يقرر الإقامة، يُسلم مهامه وأوراقه لبعضنا ونودّعه بلا أسفٍ ولا لوم. وقد نكسبُ أيضًا شابًّا أو شابة، بل أحيانًا شيخًا صافي الوجدان أو سيدة وحيدة في منتصف العمر، أي شخصٍ يكتشف هويتنا الحقيقية وراء تنكرنا، فيطلب الاقتراب والانفراد بأحدنا ويبدي استعداده للسير معنا على الطريق، ولا نقبله بيننا على الفور، ننتظر يومًا أو يومين، نشرح له المخاطر والمشاق، فإذا أبدى حرصًا وإصرارًا نحتفلُ بولادته الثانية في حياته الجديدة، نحتفل بطقوسٍ بسيطة قد تتغيّر مِن حينٍ إلى آخر، لكن ركنها الثابت والذي لا نتجاوزه أبدًا مع انضمام فردٍ جديد لأسرتنا التي بلا بيت، هو أن نحكي له حكاية العندليب مع الإمبراطور العجوز. يحكيها عادةً أقدم الأعضاء أو أحلاهم صوتًا أو أوضحهم بيانًا.

وهكذا يتبدّل أفراد جماعتنا مع الوقت، لكنّ الطريق لا تبديلَ له، تصنعه خطواتنا، ويقودنا عليه صوتُ عندليبٍ في حكاية.

**

في الصمت المهيب، لم يُسمَع سوى صوت خطوات الإمبراطور البطيئة وهو ينزل عن عرشه، ليتأمَّل مِن قريب العندليب الواقف على كف الفتاة.

لم يتوقّع بالمرة أن يكون طائرًا رماديًّا هزيلًا. هذا هو إذن الشيء الوحيد في إمبراطوريته الذي انتزع إعجاب ذلك الشاعر وأبكاه. ثم مَن تكون هذه البنت الفقيرة رثة الثياب؟ وكيف تكون هي وحدها القادرة على ترجمة غنائه؟ طلبَ منها الإمبراطور ألا تخاف، فقالت بهدوء إنها ليستْ خائفة. فتبسَّم مِن قولها. تشجعت وقالت للإمبراطور إنه يشبه جدها النجَّار، لكن جدها نحيل ولونه أصفر وبلا أسنان، بينما الإمبراطور بدين ولونه أحمر وأسنانه كاملة ولامعة. ضحكَ الإمبراطور حتى اهتز بدنه، ثمَّ طلب منها أن تجعل العندليب يغني، نقلت أمنيته للعندليب بألفاظٍ بشرية بسيطة، فتعجّب الحاضرون حينما رأوا العندليب يومئ قليلًا برأسه الضئيل ويصدح بالغناء.

لم تترك أولى النغمات أي أثر، وكأنَّ الطائر كان مأخوذًا قليلًا بالجو الغريب، أو ربما أرادَ أن يهيئَ سامعيه قبل التحليق معه. ثم حَلّ صمتٌ قصير، وكأنَّ الإمبراطورية التي لا حدود لها حبستْ أنفاسها وأرهفت أسماعها، حتَّى انبعث لحنٌ غريب وقوي من جوف ذلك المخلوق الأشد هشاشةً وضعفًا، لحنٌ فيه إيقاعٌ بعيدٌ، مِثل صدى بعيد لخفقات قلب الأرض، وفيه أيضًا جُملٌ واضحة مثل أمواجٍ عالية وأنسامٍ عذبة ولياِلٍ صيفية قصيرة من المتع المختَلسة، ونهاراتٍ شتوية طويلة من أسئلة الوَحشة.

دارت الدنيا بأعظم رجال الأرض، ورآه أفراد الحاشية وهو يتسنّد على

مِنسأته الذهبية حتَّى يبلغ أولى درجات عرشه، وجلس هناك مثل راعٍ كهلٍ أتعبه السـعي وراء قطعانه لسنوات. أخفى وجهه بين كفيه. وأحسَّ كأنّه عرفَ أخيرًا ما الحَنان.

**

رجالُ الشرطة السرية يتتبعون خطواتنا ليلًا ونهارًا، متعتهم وفوزهم في النيل منا. إذا وضعوا أيديهم السوداء على أحدنا أذاقوه من العذاب ألوانًا. نرى صور صاحبنا الشاب الجميل بعد ذلك في الصحف والشاشات وقد صار قبيحًا ومخيفًا فكأنهم صنعوا منه شخصًا آخر، ويدعونه بالخائن والمخرّب وخاطف الأطفال، ثم قد يُحرق حيًّا أو يرجم بالحجارة حتى الموت. أسماء هؤلاء في مخطوطات محفوظـة لدينا منذ أوّل الطريق، لكنّ القوائم تتزايد وتمتد بلا أمل في نهايةٍ.

قد يوسوس لنا الشيطان أحيانًا بالشكوك ويزيّن لنا اليأس وخُسران كل سَعي. عندئذٍ نكون في أمس الحاجة إلى ظهور الأمير بيننا من جديد، واجتماعه بنا ولو دقائق معدودة، خاصةً إذا طالته هو نفسه الريبة والشائعات، فقد يتساءل بعض ضعاف الإيمان إن لم يكن يخدعنا، قائلين أليس واحدًا منهم في نهاية الأمر؟ أليس حفيد الأباطرة وابن القادة وشريك المستثمرين؟ ألا يعيش مُطمئنًا في النعيم ويتركنا لهوان الذل والخوف والمُطارَدة؟

كانت زياراته تتباعد ونسمعُ أخبارًا متضاربة عن مؤمرات واتفاقات، ويظهر مَن يقول شيئًا عن استخدامنا واستخدام نهجنا المقدّس ورقة لعب بين المتصارعين على السُّلطة. ولا نملك غير أن نستعصم بالعمل والحكايات، إذ نعرف أنَّ متابعة الحركة وحدها كفيلة بالإطاحة بجميع الأسئلة، التي نتركها عن طِيب خاطر للمتقاعسين والمستمتعين بصحبة أوهامهم. وتمضي شهور دون أن يصلنا من الأمير ورجاله غير رسائل آلية، رسائل مشفّرة عبر الموجات، ليست بشرًا نستطيع أن نسألهم ونستهديهم، مجرد علامات علينا نحن أن نجتهد في تأويل فحواها، وقد نختلف أو نتفق، ثم نعمل وفق مضمونها حسب اجتهادنا وعلى قدر استطاعتنا. وصول تلك الرسائل وبعض المعونات المالية يزيل عنا الهموم والهواجس لفترةٍ من الوقت، تتجدد طاقة السعي والكفاح، ونستعيد ذكرى الجنة الضائعة التي بنى لنا مهندسو الأمير نموذجًا مصغّرًا منها، أو هكذا سَمعنا، على جزيرةٍ في أقصى بحار الأرض، ووَعَدنا بالاجتماع فيها ذات يوم، نحن وأمثالنا من بين شعوب العالم أجمع، لنعلن من هناك رسالتنا ونكشف وجوهنا للنور ونجابه الظلام والعفن.

على تلك الجزيرة سوف نجمعُ من كل زوجين اثنين، وسوف يرجع للوجود النمل والنحل وحَتَّى الذباب، وكل ما لا غنى عنه لاستمرار حياة الإنسان. لحسن الحظ أن أسلافًا لنا على الطريق لم يسمحوا بانقراض

بعـض الأنواع الحيَّة، وتعهد كلٌّ واحـدٍ منهم بحفظ حياة نوعٍ واحدٍ على الأقل، ولو كلفه ذلك حياته وحياة أهله، فبقيتْ في خزائن مخفية حشراتٌ لم يعد لها نظير تحت نور الشـمس، وعاشـت سمكة وصغارها في حوض ماءٍ دافئ بعد أن أوشـكت عشـيرتها على الاختفاء من كل البحار، وبقي عندليبٌ واحد يغنّي في مكانٍ سري، مَهمتنا الأخيرة سـتكون هي العثور عليه والاحتفاء به، قبل أن نستنسخَ منه ألفَ عندليبٍ آخر. وسوف يعيننا بعضُ أهل العِلم ممن لم يبيعوا أرواحهم بعد، وسوف نبلغ جزيرتنا الموعودة في نهايـة الأمر ولو بقـوة الأمنيات وحدها، فقط إذا لم ننـسَ أو نتعب أو ينفضّ شملنا قبل ذلك اليوم.

**

استقرّ العندليب في قفصه الذهبي، يغنّي لإنسانٍ واحدٍ فقط، متى شاء مالكه الإمبراطور الوحيد. واستقرّت الصبية في منصب تُرجمان العندليب، تنقل الرسائل بينهما، وكلٌّ مترجمٍ خائن، لكنّ الخيانة ليست على الدوام جريمة وغدرًا. بين الحين والآخـر كانت تحكي للإمبراطور عن جدها النجَّار أو جدتها القابلة، عن أبيها الصيّاد وعن أمها الـخَيّاطة، وعن آخرين صيادين وفلاحين يجلبون ألذّ الأسـماك ويزرعون أطيب الثـمار، ولكنهم أحيانًا لا يجدون قوت يومهم، تحكي له عَمَّن يصنعون أجمل وأمتن الثياب والأحذية ويسيرون حفاةً مرتدين الأسمال. فهمَ الإمبراطور الرسالة، فهو لم يكن أحمق

وإن كان جبَّارًا. ثمّة مخلوقات أخرى غير العندليب كان يجهل وجودها في إمبراطوريته، ولعلَّها أجدر منه بالاستماع إلى أغنياتها الحزينة.

اضطرب القصر وارتبكت الحاشية بأوامر الإمبراطور الجديدة. وقالَ أولو البأس من الأبناء والأحفاد إن الشيخ فقدَ صوابه وبلغه الخرف، ولا بدّ من التحرك واستلام زمام الأمور قبل أن يتآكل المُلك. أرسلوا للقبض على الصبية، لكنها حارسها الحبيب كان قد سبقهم، فأيقظها وأطلعها على تبعات ما فعلت، وطلبَ الإذنَ من أهلها بأن يأخذها ويرحل. لم يعرف لهم أحدٌ موضعًا بعد ذلك النهار، وقيلَ إنهما تزوّجا وأنجبا البنات والبنين، صادقا الفقراء والمحرومين، وشيَّدا في بقعةٍ نائية أول مجتمعٍ صغير لا يسفك الدماء أو يفسد في الأرض أو يحبس العنادلَ في أقفاص.

اعتصم العندليب بالصمت وقد اشتاق لصاحبته وللغابة والبحيرة والطيران، وتواترت نوبات بكاء الإمبراطور المرغَم على التزام جناحه. كان قد أدركَ أنَّ سُلطانه أشد هشاشة من لسان ذلك الطائر الضعيف الصامت، وكاد يستسلم لليأس حتَّى أتته هديةٌ من صديقٍ قديم، عندليبٌ من ذهب مرصّع بأثمن اللآلئ وأكرم الأحجار، إذا أدار الإمبراطور زنبركه تَغنّى له بأروع الألحان والأصوات. عندئذٍ أطلقوا سراحَ العندليب الحقيقي أخيرًا وقد هُزم في المنافسة التي بدأتْ ولن تتوقّف لآلاف السنين بين سلالته وسلالات عجيبة من الآلات الصدَّاحة.

وجـد الإمبراطور بعض العـزاء في لعبته الجديـدة. كان يملأ عندليبه الذهبي فيغنـي له حتى ينام على صوته راضيًا، وقد بدا أنه نسي البُنَيَة التي قِيـل له إنهـا فاجرة هربت مع واحـدٍ من الحرس، ونسي أيضًـا أهلها من المحرومين الذين قِيل له إنهم خططوا لانقلابٍ وفوضى. سـنة بعد أخرى وبدأ العطب يدب في أوصال العندليب الآلي، أخذَ يصدر أصواتًا مزعجة إلى أن تفكّك فجأة وبرزت أحشـاؤه المعدنية القبيحة. ثم رقد الإمبراطور مريضًا، رافضًا أي ألعاب زائفة أخرى، وكان ينادي عندليبه الأوّل بأسماءٍ طفولية مضحكة.

زحف شـبحُ الموت على فراشه في صورة شـقيقه الأكبر، وهو يتشفَّى قائلًا له لقد أتيتُ لآخذك إليَّ أخيرًا، حتّى نطوي الكتاب القديم. توسّـل الإمبراطور إلى شبح أخيه أن يشفق عليه ويصفح عنه، أو أن يمهله يومًا أو بعض يوم؛ لكي يُسوّي حسابه ويصلح بعض أخطائه ويغتسل مِن جرائمه التي لم يعد يتذكّر منها إلّا أقل القليل. قال له شبحُ الأخ إنه قد يمهله قليلًا، بل قد يغفر له أيضًا، في حالةٍ واحدةٍ فقط، أن يحضرَ إليه مخلوقًا واحدًا فقط يحب الإمبراطور حقًّا ويسهر عليه ويتمنى له الخير. وقبل أن يمد الأخ يده ليأخـذ الإمبراطور معه إلى العالَم الآخر ظهـر العندليب القديم على إفريز النافذة وجعل يغرّد. كلّما امتدت أغنيته كان شـبحُ الأخ يتراجع وترتسـم الرحمة على قسماته الشاحبة، يسترد وجه القتيل لونَ الحياة وتدب العافية في

أوصال القاتل، تذكّرا معًا لحظاتٍ أبعد من الشِّقاق والقتال، كانا يستحمّان في جدولٍ ويتراشقان بالمياه، كانا يتباريان في سباق الخيل، كانا يتقاسمان جاريةً واحدة على فراشٍ واحد. جمعهما العندليبُ أخيرًا.

عاشَ الإمبراطور بعد ذلك اليوم سنواتٍ قليلة، تفاهم خلالها مع العندليب بلغته من غير حاجة إلى تُرجمان، قبل أن يرحل هانئًا راضيًا، ثمَّ يتوالى الأباطرة المفسدون وتنقرض العنادل الحية. أمَّا الصَّبية والحارس ومَن معهما فقد قِيلَ إنهم ارتحلوا إلى جزيرةٍ نائية، جزيرة تطمح لأن تتسع حتَّى تصيرَ هي الأرض كلها، بل الوجود كله ذات يوم، جزيرة تقتربُ منَّا كُلَّما حلمنا بها.

جنّة الأقزام السّبعة

تُحدِّقون إليَّ كأنكم تنظرون إلى مَسْخٍ عجيب، اطمئنوا، فأنا لم أزل كما أنا، أخوكم الفَنَّان الذي طالما أنارَ لياليكم، فيما مضى، بالحَكَايا والأغنيات.

نَعم، مُذنبٌ وأعترف بذنبي. نَعم، تذوقتُ شفتيها وحللتُ أزرار وشرائط ثيابها وشبعتُ من جسدها، بينما كنتم نائمين تحلمون بجَنّة الحب. أليس هذا ما أُحاكَم بسببه الآن؟ فعلتُ كلَّ ما تتخيّلون وأكثر، ولا أشعرُ بالخجل أو الذنب، ألم تكن ميّتة؟ أو نصف ميتة ونصف حية؟ وكانت متاحة، غائبة عن الدُّنيا في صندوقها البلّوري، فلِمَ لا؟

ومعَ ذلك فقد تغيّرتُ كما تغيّرنا جميعًا منذ أن أتت هي. كيف ننتظر أن يعودَ كل شيءٍ إلى سيرته السابقة بعد أن قلبتْ تلك البنت حياتنا منذ ظهورها في كوخنا؟ وها أنتم تعقدون لي محاكمة لكي ينعدل الميزان وتُطوى الصفحات وتستعيدون عيشتكم الرائقة، ولا سبيل لذلك مهما اجتهدتم. لن يرجعَ شيءٌ كما كان أبدًا، مضت بلا رجعة أغاني الحنين وهجر الحبيب والصبر على الشقاء وبسمة الأمل في ليالي البرد والظلمة، وكل ذلك الكلام الزائف الذي لا يدفئ بحِضنه شخصًا وحيدًا.

تلك كانت جريمتي الحقيقية، أغنياتي وحكاياتي الكاذبة، خدعتُكم بها منذ أن وُجدنا معًا. ثم ظهرت هي، فانقطع السَّمَر وتبدد اللحن، وخرجَ صوتي بلا نغم وكلامي بلا معنى.

كنا راضينَ بعِيشةٍ شاقة لكنها مطمئنة آمنة، بلا أوجاع أو أحقاد، قبل أن تأتي هي وتحرّض ضدنا الكوابيس، وتضرم فينا حرائق الشوق لأشياء كنا نخجل من مجرد التفكير فيها أو تسميتها. كيف كان عليَّ أن أواصلَ تغريد الطيور الحمقاء بعد أن عرفتُ الشيء الحقيقي أخيرًا، ورأيتُها؟ ألم تروها أنتم أيضًا، ألم تشعروا بنفس تلك الرعشة في أبدانكم؟

تبدّدت تلك العيشة المطمئنة بلا رجعة، ولن يستردها أحدٌ منكم مهما اجتهد وأنكر وتناسى، ولن تعيدها إليكم هذه المحاكمة البائسة مهما كانت نتيجتها؛ لأنَّ الدم المسفوح لا يرجع مرةً أخرى إلى الأوردة بحكم محكمة يا إخوتي. ولن أعود للعَيش معكم حَتى لو فككتم قيودي وعفوتم عني وأعدتم لي حريتي. وهذا ليس دفاعي، بل لعلَّها حكايتي الأخيرة لكم، مِن أجل خاطر الأيام الخوالي فقط.

لم نأتِ إلى هذا المكان المعزول البغيض إلَّا بحثًا عن الذهب، لو تذكرون. بدلًا مِن الذهب اكتشفنا سنو وايت، عثرنا على الحُب، كما قد تزعم أغنياتي القديمة. تلك الكلمة الصغيرة المخيفة، الكلمة الأكثر تكرارًا والأسهل نطقًا، والتي نزيّن بها كل سِلعةٍ مغشوشة. وما الحب إلَّا قطعة خراء جافّة،

لكنَّ لمعانها من بعيد يبهر أعيننا، أشـد بريقًا من انعكاس شـعاع الشمس على شذرات الذهب بين الحجارة والرماد في المحاجر. عندما نقترب منها فقط نلمس الحقيقة، ونراها ونشمّها، أنا تجرأتُ على الاقتراب، نيابةً عنكم جميعًا.

نعم، اقتربتُ ورأيتُ ولمسـتُ، شذرةَ الذهب أو قطعة الخراء، لا فرق عنـدي. وهذا اعترافي أمامكـم، وَلَكم أن تحكموا بما تشـاؤون، فلم أعد أبكي على شيء، ولن يعود لنا عَيشنا السابق، مهما ادَّعينا ولفَّقنا المحاكمات الصورية. لن يعود لنا يومنا الساذج الرتيب مثل أغنية أطفالٍ تتكرّر تلقائيًّا بلا نهاية، تبدأ نغمتها مع ضوء الشـمس وتختتم بأصوات شخيرنا المتآلفة في جوقـة الشـقاء النائم كل ليلة مـع صعود القمر. كنا ننـام منهكين بلا أحـلام، وإن زارَ أحدُنـا حلمٌ فلا يـرى فيه إلّا الأهـل والوطن أو فتات الذهب المعشوق.

تلك كانت جنتنـا، فانظروا الآن ما أحلامكـم. صرتم تحلمون بجنّة الحب الناعمة، وأنا أوّلُكم، أوّلُ مَن كذب وهو يسليكم في الليالي الباردة حول الموقد، لكنني أيضًا كنتُ أوَّل مَن رفضَ وجودها بيننا، وعندما زاد الخلافُ ابتعدتُ واتخـذتُ كوخًا صغيرًا منفصلًا، ثم كنتُ الوحيد الذي اقترب ورأى، الذي دَنّس معبدكـم وتذوّق لَحْم ربتكم النائمة في محرابها الزجاجي.

قبلناها بيننا مِن غير تردد، وأقامت هي بيننا مثل أميرةٍ ترعى حيواناتها الأليفة، عاملتنا وكأننا رُضّع لم نبلغ الفطام بعد، ولم نعرف اللغة ولا الكذب ولا الكتمان. بل كانت تخطئ في أسمائنا وتخلط بيننا، ولعلَّها لم تميز أحدنا من الآخر طوال إقامتها معنا، وما كنا لنكترث، طالما كانت سعيدة وكنا ننعم بوجودها. تحدَّثتْ إلينا دائمًا بصيغة الجمع، صباح الخير يا أعزائي، مع السلامة يا أقزامي الطيبين، العشاء جاهز يا أصدقائي الصغار. وهكذا، بالـجُمْلة، من غير أن تلحظ التماعَ عين واحدٍ منا، أو تنتبه إلى تنهُّد آخر.

مِن قبلها، لم نشعر بأن شيئًا ما ينقصنا، لم نكن نريدُ امرأةً ولا ولدًا، لم نفتقد قُبلةً ولا عِناقًا. وربما كنا نكذب على أنفسنا طوال كل هذا الزمن. لم نكترث إلَّا للذهب الدفين في قلب الصخور القاسية. نكدح وندخّر، ونحلم بالرجوع ذات يومٍ إلى الديار والأهل، ولا نعترف ولو مَرةً أننا قد نسينا أسماء الأهل وطريق العودة إلى الديار. ثمَّ ظهرتْ هي فاختلَّ النظام واهتزّت الصور. بانت الرقع في ثيابنا والشقوق في جدراننا، ولاحظنا لأوّل مرة وجوهنا الشائخة البائسة. يستطيعُ القبيحُ أن يعيشَ حياةً سعيدة إلى الأبد، فقط لو لم يمْثُل أمام الـجَمال وجهًا لوجه.

لم يكن جمال تلك البُنية مصدر عذابٍ لزوجة أبيها القاسية وحدها، بل لكل واحدٍ منا كذلك. وعلى عكس امرأة أبيها لم نكن بحاجةٍ إلى مرآة سحرية لتخبرنا بأنَّ هناك مَن هو أجمل مِنا، عرفنا ذلك بمجرد أن رأيناها، كانت

هي مرآتنا الوقحة، فُرضتْ علينا، فانتبهنا لقِصر قاماتنا وكروشنا المتهدلة ووجوهنـا المضحكة، وعرفنا لماذا ليس لنا أهـل ولا ديار، هذا هو دورنا في الحكاية، أقزامٌ سـبعة، غاية في اللطف والبراءة، أطفال بمظهر شيوخ، ونظرنا الضعيف لم يصدّق أن يجتمع كل هذا النور في مخلوقةٍ واحدة.

وقعتم جميعًا فريسـة الـجَمال، وكنتُ قد هيأتكم له من زمنٍ بأكاذيبي التي أندم عليها الآن أكثر من أي شيءٍ آخر فعلته. كنتُ الوحيد الذي أنكر ولعنَ وألَّبتكم عليها، مِن غير جدوى، كان الـجَمال أشد بأسًا من أي كلام. ثم تباريتـم لإرضاء معبودتكم، فواحدٌ يجمع لها جذور البطاطا الـحُلوة، وواحدٌ يترك لها رسالة امتنان على المرآة، وآخر يحرص على إضحاكها ولو على حساب كرامته، وآخر يحرس نوم قيلولتها من الهوام وأحلام الظهيرة السـيئة. بينما أكاد أُجَن، أكتم نارًا حارقة توعز لي بأن أمرّغ وجهها ناصع البيـاض في الوحل. كراهيةٌ صافية وغـير مُبررة، كانت هي الوجه الآخر لعِشقي الأخرس.

حَتَّى بعد أن اعتزلتُكم، ظَلَّت صورتها لعنةً مسـلّطة عليَّ في صحوي ونومي، وكلّما حاولتْ امرأةُ أبيها الشريرة قتلها كنتُ أتنسـم هواء الحرّية وأتأهب لاسـترداد السَّكينة والسلام، ثم تعود الشَّقية للحياة كأنَّ شيئًا لم يكن، وأقسمُ بالأخّوة بيننا أنها لو لم تأكل قضمة من تلك التفاحة المسمومة ربما كنتُ دسستُ لها السمَّ بنفسي.

فقط بعـد أن نامت غائبةً عن الوعي أدركـتُ حقيقة الداء الذي كان ينهشـني، كنتُ أطلبُ يقينًا مـا، أردتُ أن أتأكّد وأن أقترب وأعرف، أن أتذوق وألمس وأشـم. أردتُ أن أفعل ما كنا نفعله في المحاجر طوال أيام شـغلنا، أن أنخل أحجـار الوهم، ولو جبالًا، لأعثـر على ذهب الحقيقة، ولو فُتاتًا.

لم ينتقص مرور الأيام مِن حُسـنها شيئًا. كنتم تطوفون حول ضريحها الشَّـفَّاف في الليل وفي النهار، واضعين حوله الزهور والشـموع والثمار. وكنـتُ أراقبها مِن بعيد، وأتمنى لو أنها تتعفَّن وتتفسَّـخ، لو تفوح رائحة تحللها نتنة مِن جثتها وتجتاحها جيوش الدود والحشرات. لكنها ظلَّت كما هي، وبدأتُ أزورها خِلسـةً بعد أن تناموا، وصرتُ أبكي أمام جسـمها المسجَّى، أبكي لأنني لم أعد أعرف مَن أكون أنا ولا مَن تكون هي، ولأنني لم أعد أجد الكلمات التي كانت تهوّن عليَّ وتروي غليلي.

تلك كانت قرابيني للمعبودة في البداية، ثُم عرفتُ بماذا يجب أن أضحّي لكي تنهض وتسترد أنفاس الحياة، قدّمت لها وهمَ الحب العزيز، نارًا تسري مِن احتكاك جسدٍ معذّب بجسدٍ غائب، وكان ذلك أيضًا بكاءً أخرس.

أعترف، فعلت، أعترف، مذنب، لكنني عبدتُها خيرًا مِنكم، أنا الوحيد الذي تجرأتُ على امتحان ذَهب الحلم ورميتُه في النار، ورميتُ نفسي معه. اجتزتُ العتبة المخيفة ونفختُ فيها من روح عذابي، قبل أن يظهر ابن عمها

كامل الأوصــاف فيأخذها مِن بين أيديكم ويتخذهــا زوجًا. وتُصدقون الآن أن قُبلتــه التافهة هي التي رَدّت إليها روحها، أما قُربانى أنا، بالدموع واللعاب والدم والمني، فهو همزات الشياطين ودليل إدانتي.

أرأيتم كيف لا تزالون ناعســين في ظلال الخيبة والحماقة؟ أرأيتم كيف تنكــرون وجودكم وأشــواق نفوســكم؟ آه لــو كنتم معــي، آه لو ذقتكم مــا ذقته أنا، ولكن رغــم ذلك فقد أرويه لكم ذات يوم، إن كان حكمكم مخففًا وتركتموني أعيش قليلًا، ولو منبوذًا، وأعدكم أن أتظاهر بالنَّدَم بين الحــين والآخر حَتى لا أعكّر صفاء تَقواكم. ربما أروي لكم كل شيء، إذا رضيــتْ عليَّ الكلمات وَمَنّــت عليَّ بلطائفها مرةً أخرى، وســأصف لكم عندئذٍ أرهف الأحاسيس وأدق التفاصيل، حَتّى لتشعروا بأنكم كنتم معي، أو كنتم أنا، تزحفون على مَلاســة بدنها صعودًا وهبوطًا، تحت دثار الليل المثقوب بالنجوم التي تعرف كيف تتلصص في صمت.

رغــم هــذا، لا أظن أنني قادر بعد الآن عــلى أن أكذبَ في الليالي لكي أحظى بإعجابكم. أمسكتُ بالسراب بين يديَّ، فلا مزيد من الخداع. فيما مضى، كنتُ لَكَم المُغنّي والعازف والـحَكَّاء، وقلتم لي أنت ســميرُ الليالي وأُنــسُ المكان. صحيح؟ تذكــرون؟ الحقيقة أنني لم أحــب يومًا أن أكون كذلك، ولا مرة واحدة شــعرتُ أنني أصدّق نفسي، سواءٌ أكانت أغنيتي عن رحلة عازف الناي الأســير على ســفن الهَمَج، أم كانت حكايتي عن

الأميرة وبحثها المضني عن البستاني المجهول. لم أؤمن يومًا بأن الحظ الطيّب يكافئ الطيبين مع سطر النهاية، لم أكن أتذّوق المعاني الحلوة إلّا بقدر ما تتذوّق الملعقةُ الحساءَ.

لا تسألوني الآن كيف كنتُ أضحككم وأُبككيم بكلماتٍ لا مَعَنى لها عندي، بأحلامٍ حُلوة لا أصدّقها، فلستُ أدري، كنتُ فقط محتاجًا لأن أسمع صوتي وهو يغنّي ويتلاعبُ بالكلمات، كنتُ أهربُ إليكم مِن فراغٍ في جوفي لو تركته شاغرًا لاحتلته الشياطين. ومع الوقت تَخيلتم أنَّ صوتي عَذبٌ وأنَّ حديثي ساحرٌ، ثم ظهرت هي، فعرفتم عن حَق كيف تكون العذوبة وما حقيقة السِّحر. كنتُ أترككم تتحلّقون حولها كلَّ مساء وأهيم في الغابة. ولم أكن أجد الكلمات، بدت اللغة كلها فقاعة كبيرة منفوخة بالعَدَم، فقط كنتُ أبكي وأرتمي على تراب الأرض مرتجفًا وملتذًّا بعد أن أسلمتُ نفسي أخيرًا لجيوش الشياطين تتدافع في جوفي.

نسينا الذَّهب وشوق الغريب إلى الأهل والديار، وصرنا نحلم بجنَّة الحب دون أن نعرف إن كانت حقيقةً أو وهمًا. كان على واحدٍ مِنا على الأقل أن يتأكَّد، أن يرمي نفسه في النار. كان عليه أن يرفع في الليل الغطاء الزجاجي عن الربة الغائبة عن الدنيا، لا هي حَية ولا هي ميتة. فتقدّمتُ أنا، ولم يكن وراء باب الحُلم إلّا الخواء المخيف. كان عليَّ أنا أن أبني لي بيتًا في الجحيم، لأترككم ناعسين في ظلال الأمان، تواصلون الحُلم بالجنة.

ربما تهدأ نفوسكم وتشعرون بالراحة والعزاء إن قلتُ لكم الآن صادقًا إنني لم أسعد أو أفرح بما فعلت. كانت مجرّد جسد، جسد ناعم وحلو الرائحة، فقط، لا شيء أكثر. وعرفتُ أنها حتى وإن كانت حَية تشهق وتضحك وتتوجّع فلن أنالَ منها أكثر مما قد يناله جسدٌ من جسدٍ آخر، احتكاكٌ متوتر واختلاط سوائل ونشوة رخيصة تختفي بمجرد ظهورها، فلا يبقى غير نفور الحواس وخيبة الرجاء بعد انقضاء النشوة. ثمَّ لا يتبقى من مهرجان الأوهام سوى الذكرى المدثَّرة في كلمات، أي الحكاية والأغنية، نفس الأكاذيب القديمة.

تستطيعون أن تحكموا عليَّ الآن بالموت أو النفي، أن تصادروا ما أملك، أو تقطعوا لساني، أو تتخذوني عبدًا خادمًا، لكنني سأقترح عليكم ما هو أبسط وأفضل لي ولكم. ماذا لو اعتبرنا كل ما قلتُه لكم الليلة مجرد حكاية أخرى من حكاياتي القديمة، فلا سنو وايت ولا أحلام ولا جريمة ولا ذنب. عندئذٍ يمكننا أن نستعيدَ بجرّة قلم جنتنا القديمة، لو تذكرونها، نطفئ هذه النار وننهض للنوم، مثل الأيام الخوالي، بينما نتبادل عباراتٍ حول لحم الأرانب على العشاء أو مهام عمل اليوم التالي، مُستعدين كعادتنا لأن ننسى حكاية هذه السَّهرة قبل طلوع النهار.


كان يا ما كان ... في بلد الجمال

(1)

زعمَ الرواي، الذي هو أنا، يا سادة يا كِرام، أنّه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كان هناك بلدٌ يُقدِّسُ أهله الـحُسـنَ في كل شيء، بحيث اتخذوا منه دِينًا لهم، ومِن بين جميع الأرباب السائدة آنذاك اختاروا أن يعبدوا إلهًا مَحَليًّا هو بَهَار وكان رب الـجَمَال، حتَّى أُسميتْ بلادهم بَهَارشتانا، أي مَوضـع الـجَمَال أو بلـد الـجَمَيل أو شيء بهذا المعنـى. ولأصل عقيدتهم حكاية قديمة، يتوارثها أهل بَهَارشتانا جيلًا بعد جيل ويحفظها الكَهنة في الصدور قبل الرقاق والسـجلَّات. وتقول الحكاية إنَّ رب الـجَمَال، بَهَار، ظهر في صورة بشرية لعبدٍ فقيرٍ صالح يعملُ نجَّارًا ويبني الأكواخ للناس، وكان اسمه ييما. جُمعتْ تلك الأحاديث عبر آلاف السنين، في مخطوطات عديـدة، وكانت هي أصل عقيدة الـجَمَال التي دَعَا إليها ييما. قبل مباشرة دعوته، كانت أمامه مَهمة أولى أساسـية، أن يُحـذِّر قومه مِن ذوبان ثلوج الجبـال المحيطة بهم، وغرقهم جميعًا وفَناء كل حياة على وجه الأرض مِن بعد ذلك، بشرًا ودوابَّ وطيرًا، حتَّى تعود الأرض عَماءً سائلًا، كما كانت أوَّل مرة. أخبره بَهَار: «***قبل ذلك الشتاء الطويل، سوف تمتلئ البلاد بوفرةٍ***

من كلأ الماشية، قبل أن تجتاحها المياه. ثمَّ بعد ذوبان الثلج، سوف يصبح، يا ييما، أيُّ مكان يشاهَد فيه آثار أقدام لَخروفٍ أعجوبة العالم» (*).

لم يُصدّقه أحد، لكنه لم ييأس وأخذ يبني القلعة التي أمره بَهَار ببنائها، فـوق قمةٍ عالية، ليحفظ فيها بذرة الحياة التالية. مع السـنوات تواصلت سـخرية قومه منه، لكنَّ قليلين صدَّقوه وعاونوه، خشـيةً مِن الموت غرقًا أو هربًا من بؤس حياتهم. وقبل أن تحلَّ الكارثة، «...، ***تصلُ تعليماتٌ إلى ييما بـأن يتولَّى تربية ورعاية الناس والحيوانات والنباتات بأسـلوبٍ مُعيَّن بقَصْد التخلّص مِن كل ما هو مَعيب، فبالنسبة للناس ألَّا يكون هناك أحدٌ أحـدب ولا أحـد له كرِش، ولن يكون هناك مِن هو ضعيف جنسـيًّا ولا مَـن هو مجنون ولا مِن هو لئيم ولا كاذب، ولا مؤذٍ ولا حقود، ولا واحد أسنانه متآكلة، ولا أبرص ليُحتجز، ...»*** (*).

(2)

بعد آلاف السنين، صارت هذه الأرض لا تضمَّ من الأحياء إلَّا كل سليم البدن جميل الصورة. والدليل يبدو أمامكم هُنا يا سـادة يا كرام، في دكان

(*) ما بين القوسـين مُقتبس من كتاب **فلاسـفة الشرق**: تأليـف: أ. و. ف. توملين– ترجمة: عبد الحميد سليم.

الحلَّاق مونون، حيث ترتسم على مرآته ملامح هذا الشاب زورا، فتأمّلوا قليلًا.

بعد أن ينتهي عم مونون الحلَّاق يطلب منه زُورا أن يجمعَ له ما تساقط مِن شَعره على المنديل والأرض، ليأخذه معه إلى البيت. فيسأله مونون باسمًا في مكر:

من زمن وأنا أجمعه لك، بينما يأكلني الفضول، فما حاجة سراج الحيّ المنير إلى قصاصات شَعره؟ أم أنَّك تخشى أن نعقدَ لكَ به سِحرًا فنسلبكَ بعض بهائك؟

لا سِحر إلَّا ما أخفاه بَهَار، دامَ حُسنه، في الأعين السُّود يا عم مونون، لكنَّ أمي تحبُّ أن تجمع شَعري ثمَّ تحشو به الوسائد، تقول إنه أنعم مِن ريش الدواجن.

ومعها حق، فإني لم ألمس أنعم مِن شعرك حالك السواد هذا خلال سنين عملي العديدة. تعرف يا زورا، أُقسمُ ببَهار، لو أنكَّ كنتَ صبية لقتلتُ نفسي طَلَبًا لكَ.

تعرف يا عم مونون، وقَسَمًا على قَسمك، لو أنني كنتُ صبية لقتلتُ نفسي هَربًا منكَ.

ثمَّ يخرج زورا عائدًا إلى البيت وفي يده لفافةٌ فيها بقايا شَعره. وفي البيت، تتحقَّق أمنية الحلَّاق مونون بقدرة قادر، عندما يضيفُ زورا خصلات الشعر المقصوصة توًّا إلى عنقود الضفائر المجدولة معًا ويضعها على رأسه مثل عِمامة سوداء لامعة، فيصير الصبي صبية تتأمّل صورتها في المرآة مُعجبة، حتَّى تنبهها أمها من شرودها فتقوم إلى بعض أعمال البيت.

نشأ زورا ذكرًا، في الخارج بالطرقات وبين الناس وفي دكَّان أبيه النسَّاخ. وكبرتْ زورا أنثى، في الداخل بالبيت وبين والديها ووسط الدواجن وأواني مطبخ أمها، وغير هؤلاء لم يطَّلع على السر أحد، لئلا يُنبَذ الخُنثى ويطرد من بلد الجمال، حسب الشريعة التي لا سبيل لمخالفتها. وعاش الذكر والأنثى في جسدٍ واحد، وبين الفخذين عضوان متجاوران، كأنهما لَعنة بَهار مجسَّدة، وعلى الصدر نهدان صغيران تعلَّم الفتى أن يُحكمَ ضغطهما تحت ثيابه، قبل أن يعبرَ عتبة الباب، كَما تعلَّم أن يتوزَّع بالعدل بين أمه وأبيه. نضج عقله أسرع من سنّه، وكان الخوف والكتمان والقلق رفاق لعبها. أسماه أمه وأبوه عند ولادتها زورا، اسم يصلح للبنات والبنين على السواء، ومن بين معانيه في لغة هذا البلد السراب أو الكذبة البيضاء أو الخُدعة الجميلة مُتقنة الصنع حتَّى تكاد تطغى على الحقيقة.

(3)

بعد شـهورٍ، قليلة أو كثيرة، سـوف يقف زورا أمام مَلِكين، أحدهما قبيح والآخر جميل، ظاهر وخفي، وسوف تتلو زورا من كتابٍ لا وجود له إلَّا في عقلها:

«الجمالُ أوَّل الأكاذيب وآخرها، كان بيبا يدركُ هذا، رغم أنَّه رسول ربّ الـجَمال إلينا، لكن ما الذي ليس كذبة في عَالَمنا؟ لذلك أخفى بيبا السِّر ولم يأتمن عليه إلَّا فئة قليلة من خاصته، إذ قال لهم: في قلب هذه التفاحة دودةٌ، هي الحياة، أمَّا التفاحة نفسها فهي الفَخ والوَهم والكذبة الشَّهية المحكمة، فدعوا الناس يقضمونها ولا تفسدوا متعتهم بكشف الحقيقة».

(4)

وصـلَ وليُّ العهد المنتظر إلى الدنيا وليدًا شـائهًا، فماتتْ أمُّه حسرةً بعد أن ألقتْ نظرةً واحدةً عليه.

أُخـذتْ القابلة وكلَّ مَن رأى المولود مِن الـخَدَم والجواري إلى خارج بَهارشتانا، خشية افتضاح السِّر. ثم أُسلمَ خِفيةً لمُرضعةٍ خرساء بكماء جيء بها مِن بين الغجر، وأغلقوا عليهما غرفةً حتَّى يرأف بَهَار على الملك المَنكوب ويُرشده إلى الصَواب.

مسكين أيها الملك، كيف تحققت أعز أمنياتك فقط لتنقلبَ اختبارًا عسيرًا لصدق عقيدتك؟ بعد أن أحسَّ أن السَماء قد رضت وتبسَّمت أخيرًا، ونهضَ بطنُ إحدى نسائه مُعلنًا البشرى التي طالَ انتظارها، ليبرد قلبه بغُلامٍ يرثُ مِن بعده كل هذا الـجَمال، إذا بالرب بَهار يسخرُ منه ويُرسلُ له مَسخًا فظيع الصورة.

وها هو الملك يُعلنُ أنَّ الأمير وُلدَ ميتًا ورحلت معه الوالدة كأنَّها أبت ألَّا تفارقه، وها هو الملك يأمر بإعلان الحِداد ويتظاهر بالحزن والتماسُك خلال الطقوس التي طالت وتراكمت حجارةً أخرى على قلبه، حتَّى انفردَ أخيرًا بجَمر أسئلته ومدَّ إليه أصابعه طوعًا. أي عذابٍ هذا؟ أهي نعمةٌ أم نقمة؟ لو استبقى الوليد، مخالفًا بذلك شريعة الأجداد، كيف سيربيه في الخفاء؟ ولو نجحَ في إخفائه عن الأعين، فأي قيمةٍ لوريثٍ سجين؟ إذ كيف يمكن أن يستوي ملكٌ قبيحٌ على عَرش بلادٍ تعبدُ الـجَمال؟ حتَّى لو جمعَ أفضل الأطباء والمزينين من أطراف الأرض، فلن يقدروا على أن يخلقوه خَلقًا جديدًا ويبدّلوا قبحه حُسنًا يليق بالملوك.

أحسَّ أنه يعيش في كابوس أو مزحة شرّيرة. تأمره العقيدة الصحيحة بالتخلّص مِن ولده الوحيد، كما هو متبع مع كل مولود تبدو عليه أهون علامات العَجز والقبح وكل عيبٍ لا يُداوى مع الوقت. تَعَاليم الكهنة واضحة لا لبس فيها، ويجري تنفيذها على أيدي شُرطة الـجَمال بلا تهاون،

كلُّ مَـن يُولَّد معيبًا يُوهَب إلى أسرة مِن قبائل الرُّعاة المنتشرة حول حدود المملكة، ومعه ثروة صغيرة، تُدفَع مِن خزانة القَصر إلى أهله الـجُدد، تكفيهم كَلفته حتَّى يشبَّ، ويصيرُ واحدًا منهم، راعيًا بائسًا، قبيحًا وسط قُبحاء، لا يعلمُ شـيئًا عن مَنبته النبيل وربما يتأمّل أسوار المملكة مِن بعيد متخيلًا النعيم المحجوب وراءها، فهل يكون هذا هو مصير ابن ملك البلاد؟

أَلم يقولوا، في بعض كتبهم القديمة، إنَّ ييما كان إنسـانًا بسيطًا، يعزف النـاي ويرقص حَافيًا مع الرُّعاة والغجر، ومـع ذلك فقد خَصَّه ربُّنا بَهار بالوحي مِن دون الناس جميعًا؟ أيُّ إرادةٍ متحجّرة القلب تُملي عليه أن يقتطع مُضغةً حيةً من جِسمه، هي أعزّ ما تمنَّى من الدنيا، إلى غرباء مساكين، كأنها صَدَقة أو فَضْلة؟

ولا يزال الملكُ يكتمُ عذابه حتَّى فاضَ به الكيل، وقرَّر أن يُفضي بكل شيءٍ إلى أقرب إنسانٍ إليه. استدعى وزيره الحكيم وانفردَ به وأطلعه على السر بصوتٍ متهدج وعينين مُبللتين. سـادَ صمـتٌ ثقيل، بعد أن تخفّف الملك مِن ثِقل نَفسـه. لا يُسـمَع إلَّا صوتُ أنفاسـهما وبين الحين والآخر صيحـة أحد طيور الليل مِن بسـاتين القصر المترامية. كلاهما شـيخٌ عَفيٌّ وحسـن الصورة. طوال رحلتهما معًا، استطاعا أن يخرجا بالمُلك سالمًا مِن أصعب المآزق، بفضل بأس هـذا الملك وحكمة هذا الوزير، الذي يتردد أنّه يتلَّقى وحيًا مباشرًا في الأحلام مِن بَهار نفسه، غيرَ أنه بدا لبضع دقائق

مرتبكًا وضائعًا مثل صديقه ومولاه تمامًا. وسرعانَ ما استعاد الوزير نفسه، وقال ناصحًا بنبرة مَن لا يصدّق ما يقول تمام الصدق:

مَن ذا الذي قال إنَّ ما يسري على الرَعية يسري على الراعي؟ معبودنا بَهار، دامَ حُسنه، يختبرك ويختبرنا جميعًا معك، فأميرنا الوليد هو أمل هذه المملكة، الموضع الوحيد في الأرض الذي تخر عليه الجباه ساجدةً أمام بَهار ذي الجَمال. رغم ذلك، يا مولاي، أعترف بأني لا أرى الآن أمامي سبيلًا واضحًا، ولكن فلتُمهلني ليلةً واحدة، لعلَّ الأحلام تمنّ عليَّ بهمسها الهادي كما تعهدتني برعايتها فيما سبق مِن عمري الطويل.

قُبيل انتصاف الليل، شربَ الوزير منقوع الأعشاب المعروفة بقدرتها على جَلب الأحلام، ورقدَ في شُرفة جناحه تحت أعين النجوم وهلالٍ نحيلٍ للغاية كأنَّه أمنية خجولة، وراحَ يردّد هامسًا أدعيته المعهودة لبَهار، حتَّى نام. في ضحى اليوم التالي، دخل الوزيرُ ديوانَ الملك متهللًا، ترتسم على وجهه أمارات الفَرج. صُرفَ الآخرون جميعًا، وعاجله الملك بالسؤال وفؤاده في حَلقه:

أهو خَير؟

الخير والبشارة، يا مولاي. ولكن أسألكَ أولًا أن تصف لي وليدنا المبارك؛ لأنني رأيتُه في حلمي، فهل تُغطّي وجهه بقعٌ حمراء داكنة تخرج منها شعيراتٌ كالأشواك؟

صحيح.

وعلى ظهره حدبةٌ بارزة كأنها سنام جمل؟

هو كذلك.

وهل ساقاه مقوسّتان مثل...

كفاكَ، وإلّا أفسدتَ هواء القاعة بتلك الأوصاف، هو كما تقول، والآن هاتِ البشارة.

رأيتُ أميرنا في الحلم شابًّا يافعًا، على الصورة التي وصفتُها لكم. على رأسه التاج ويتدلَّى من خصره السيف، وبين يديه كتابٌ أحمر الغلاف أبيض الصفحات، وكان يقف أمامَ مرآة مصقولة، لكنَّ الصورة التي تعكسها له مرآته لشابٍ بَهيّ الطلعة، على ذقنه طابع الحُسن وفي خدّه شامة، وبدلًا مِن الكتاب كان الشاب الجميل يمسك زهرةً حمراء. كان ابنكم، في الحلم، كلَّما تحرَّك أو تكلَّم، عكسَ الشابُّ الجميلُ حركاته وكلامه، ثم كانا يتحدَّثان ويلعبان بينما يكبران معًا، ثُمَّ أسلمَ الأمير لصورته الكتابَ وتناول منه الزهرة، وعندئذٍ تبدّد الحُلمُ وصحوتُ على ضجيج الطيور.

رَنَا الملكُ إليه وهلةً بملامح حائرة، ثم تساءل ملهوفًا:

وما معنى هذا كله؟

لا بدَّ أن يبقى أميرنا المبارك خفيًّا عن الأعين، سيكون هو ولي العهد وملك البلاد بعد أن يختارك بَهار إلى جواره، ولكن سرًّا ومِن وراء حجاب. وفي العَلن سُنظهر بدلًا منه صورةً له، وليدًا وَضِيئًا أبدعَ بهار في رسمه. سيكبران معًا ويلعبان معًا، مثل ظاهر وباطن راحة اليد الواحدة.

لكني أعلنتُ موتَ الوليد.

أمرٌ هيّن، نُعلنُ أنَّ إحدى نسائك أنجبتْ وليدًا آخر.

وكيف نضمن ألَّا يتمرَّد ذلك الأمير الصورة؟

لن يكون إلَّا وصيفًا لأميرنا المبارك، يظل أهله الأعزاء وهو نفسه تحت أعين الحرس وقادة الجيش، لا يتخذ قرارًا إلَّا بالرجوع إلى سيّده ومولاه، الذي سيحكم مِن وراء ستار.

وإلى متى يستمر هذا الوضع المقلوب؟

لن يستمرَّ طويلًا، حسب رموز الحلم سوف يتبادلان المواضع فيما بينهما ذات يوم، لكنَّي لا أدري كيف سيحدث هذا أو متى، يُوجد بين الرموز كتابٌ وزَهرة، وهما قد يدلَّان على أمورٍ عديدة، وليس بأيدينا الآن إلَّا الثقة في وحي الأحلام، إلى أن تنفرج الغمَّة.

ومِن أين سنأتي بذلك المولود الجميل ذي طابع الحُسن والشامة؟

تلك هي الإشـارة الصريحة، فقد وُلِدَ قبل أيـام لكبرى بناتي كما يعلم مولانا.

أهو جميل حقًّا؟

شعاع مِن نور بَهَار دامَ حُسنه.

وأمُّه؟

مقدورٌ عليها، وسنعلنُ للجميع أنَّه مات.

الكِتمان واجب، وإلَّا انقلبَ حلمك هذا كابوسًا.

لـن نأتمنَ عـلى السر إلَّا خاصـة رجالنا، فاعتبرهم كأنهـم لا يعلمون شيئًا.

أرجو أن نكون قد اخترنا الطريق الصحيح.

ما يختاره الملوك هو الطريق الصحيح.

(5)

يحكـي الراوي كأنـه مطلعٌ عـلى كل شيء، وهو يكـذب، يخلط الأوراق ويلفّـق ويرتجـل. يحكي الراوي واثقًا، كأنه كان شـاهد عِيـان، كأنه كان

بـين أيديهـم في بلاد الجمال، يرى ويسـمع، وما رأى وما سـمع إلَّا فُتات أوهامـه تلمع كالبرق وتنطفـئ في اللحظة التالية. فما كان فيهم إذ تتحوَّل أحـلام الوزير إلى وقائـع تُعاش، وما كان فيهم إذ تصـير الحكايات أيامًا والأيـام حكايات لا تُصدّق، وإذ يتهامس نفرٌ مِن الحاشـية حول مَسـخٍ حبيسٍ، وُلدَ كتوأمٍ لولي العهد، ولم يهن على مولانا الملك أن يتخلَّص منـه، مُخالِفًا بذلك الشرائع الراسـخة، وإذ يمنعون المرايا على طفلين صغيرين، فيصير كلٌّ منهما مرآة صاحبه.

يكـبر الجميل وهو يرى نفسـه في قبح أخيه ويظـن أنه كذلك، ويكبر القبيح وهو يرى نفسـه في حُسن أخيه ويظن نفسه كذلك، ولم يعرف أيٌّ منهما سـببًا لكلّ تلك الأبواب والأقفال والدهاليـز التي تُفضي بأحدهما إلى صاحبه خِلسة، لكنَّ الوقت كان كفيلًا بإطلاعهما على الأسرار واحدًا بعد آخر. أحبَّ كلٌّ مِن الصغيرين أخاه، وجلبَ الجميلُ لأخيه القبيح في محبسـه، كل يومٍ، اللُّعب والأغاني والألغاز وحكايات الـخَدم ورحلات الصيد ونميمة الحريم، وكان الآخر مُحرَجًا يُلّفق له ما اسـتطاع، مسـتمدًّا هيكل حكاياته ممَّا يروى له، ومبتدعًا منه أشياءً لا وجود لها، عن مخلوقاتٍ تزوره في جناحه المعزول، وتنقل له أخبارًا مِن بلادٍ بعيدة مسـحورة، ولم يكن كل حديث الأمير الحبيس كذبًا مع ذلك، فإنَّ للعزلة ألسنتها السرّية. وذات مرَّة لم يصدّق أخوه الجميل شيئًا قد رواه له القبيح، فقال له:

إنما تحكي يا أخي عن الأحلام، أنا أعرفها، أراها أيضًا في نومي، ولكنها غير الحقيقة.

وماذا يضمنُ لي أنَّ ما تحكيه لي أنتَ حقيقةٌ وليس أحلامًا؟

بسيطة؛ الأحلام نراها وحدنا، والحقيقة يراها الآخرون معنا.

ولكن هل نصدِّق أعين الآخرين أم أعيننا نحن؟

إنَّ بصري حديد، ومَن يكذب عليَّ يُطيِّر السيَّاف رأسه.

هل تراني الآن جيدًا؟

بقدر ما تسمح هذه القناديل.

إذنْ صِف لي شَكلي.

مرة أخرى؟

لكن اصدقني هذه المرة.

أخشى ألَّا أجد الكلمات التي أصفكَ بها.

حاول، وسوف أساعدك.

أنت غريب قليلًا، لستَ بشعًا، ولكنكَ غيرَ كلّ مَن رأيتُ مِن الناس، كأنَّ مَن صنعكَ كان غاضبًا أو حزينًا.

ليكن كلامك محدّدًا ودقيقًا، ولا تخشَ عليَّ.

أخشى أن يسمعنا أحد، فهذا ليس مسموحًا لي.

لا بأس، لكن عِدني أن تصفني قليلًا كُلَّما تركونا وحدنا مِثل الآن.

أعدكَ.

وأن تجلبَ لي كتبًا أخرى غير تلك التي حفظتُ كلَّ ما فيها.

ما أسرعَ ما تلتهمُ تلك الكتب الثقيلة.

إنها رفيق وحدتي الوحيد.

غدًا سأحضرُ لك كتبًا أخرى، هل هناك أوامر أخرى يا مولاي؟

نعم، اطلب منهم أن يصنعوا لي نماذج صغيرة ملوّنة من جميع الأشجار والزهور والدواب والطير التي تحدثني عنها.

أمرٌ هيّن، فأبونا الملك لا يرفض لنا طَلَبًا كما تعرف.

لماذا لم يزرني منذ أيام؟

الملك... طريحُ الفراش، ويبدو أنَّ مرضه هذه المرة شديد.

يزعمُ الراوي أنهما بكيا أباهما الملك –بعد رحيله– في صدر أحدهما الآخر.

يزعم واثقًا مِن كلامه كأنَّه كان معهما في الجناح السري شبه المعتم.

وكل يوم يلتقيان ويلحظان مرور الأيام منعكسًا على الوجهين والجسدين. وفي كل لقاءٍ يتناولان أحوال المملكة ويدرسان عقيدة الـجَمَال ويتابعان كيف يدبّر الجميل أمور الحكم بمعاونة وزيره العجوز الحكيم. وفي كل لقاء كان يحاول الجميل أن يجد كلماتٍ مناسبة ليصف لأخيه الحبيس العالَمَ الذي في الخارج، ويتهرَّب مِن أن يصف له صورته، مهما ألَحَّ عليه أخوه. وكان القبيح ينصت مبتسمًا ومشفقًا على أخيه، حتَّى اعترف له ذات يوم أنَّه يدرك تشوَّه خلقته مقارنةً بالآخرين جميعًا، وأنَّ هذا هو سبب حَبْسه وإخفائه عن الأعين، فقد تأمَّل صورته في المياه كثيرًا، ورأى فيها ما كان يعرفه مِن قبل باللمس. عندئذٍ ضحكا قليلًا، وسأله أخوه:

لماذا إذنْ أتعبتني معكَ بحثًا عن كلامٍ جميل؟

لأني أحبُّ الكلام الجميل ولو كان زيفًا خالصًا.

(6)

تقولُ زورا للمَلِكين المنصتين لها، واحدٌ شاخصٌ إليها والآخر لا يزال وراء حجاب. يقول زورا وكأنّه يتلو الكتاب الذي ظلَّ طوال عمره يكتبه

في وَهمه وخاطره:

«ليسَ لأحدٍ مرآةٌ خارجَ نَفسه، ولن تُظهِر له مرآةُ باطِنه شيئًا إن لم يُفرغها مِن كل وهم. المرآة الخالية فقط تتلَّقى أنوار الـحَق. وكلُّ مرآةٍ خارج النَفس نُزهةٌ قَصيرة الأجل، سَـهرةُ أنسٍ صيفية مصيرها النِسيان. وكلُّ انعكاسٍ للحَق على شيء خارجه انحرافٌ وتَشوُّه، وكُلُّ جَمالٍ تَلوُّنٌ وتَلوُّث. والحقُّ بلا لونٍ كالهَـواء، يتجلَّى بلا صورةٍ ولا كلام. لكنَّ الحق حجابه الـجَمَال، وحجابُ الجميل جميل، لكنّه يبقى حجابًا، ويتبدَّل دَومًا، مع تبدّل الأزمان والأماكن والأعين والنفوس، وإننا هذا الحجاب، نحنُ وسائر هذا الوجود الـجَميل، بعضُ ثَبَجٍ ومَوج على وجه بحرٍ بلا قرار».

(7)

يسيرُ زورا حائرًا، غافلًا عن الطريق الذي قطعه آلاف المرَّات خلال صباه وشـبابه، مِن الدُكَّان في سوق الورَّاقين إلى البيت، ومِن البيت إلى الدُكَّان، مِن الذكر إلى الأنثى، يعرفُ لكلٍّ منهما صَوتًا وأداءً وثيابًا، ويمثّل الدورين بإتقان مَن لا وَجه له، لكنَّ المياه تختلطُ في بعض الأحيان، فلا يعود يدري مَن هو ولا ماذا عليه أن يفعل وكيف يتكلَّم مع الناس.

منذ أن رحلتْ أمُّها صارت هي أمّ أبيها وسيدة الدار، ومنذ أن مرضَ

أبوه صارَ هو يعمل بمفرده في الدكَّان يشتري ويبيع الكتب، وينسخُ حَسَب الطلب، ولا يهنأ بساعة قراءة إلَّا لِمامًا. لعلَّ القراءة هي الأمر الوحيد الذي ينسى فيه نفسه ولا يعود يسأل مَن هو ولا ماذا عليه أن يفعل الآن. تتبدّد صورتـاه ولا يبقى غير قارئٍ لا جنس له أمامَ صوت الكلمات وصورها، وسرعان ما تنتزعه جلبة الدنيا مِن صفاء ضياعه بين الصفحات، كما انتزعه الآن صوتُ جارهم الحلَّاق مونون، وقد استوقفه مدفوعًا بِدَاء الفضول:

أين أبوكَ يا زورا؟ لم أره منذ أسابيع؟ هل هو مسافر أو... مريض؟

في الدار يا عَم مونون، يعتزل ويتعبَّد.

أبلغه سلامي وقل له إننا نفتقد أسماره وحكاياته البديعة.

أفعل، لكنه اسـتمرأ الكَسـل ولم يعد يغادر البيت، وألقى الحِمل كله عليَّ.

نِعم الابن أنت يا رَيحانة الـحَي، ربَّما آن الأوان لأن تجدَ مَن تُعينك على حِملك. على العموم إن احتجتَ شـيئًا بيتي مفتـوح، وزوجتي وبناتي هنَّ أمك وأخواتك.

كُلٌّ يناوِشُ غَرَضًا، ولا يطَّلعُ على الباطن إلَّا بَهَار الجميل. هل يريد مونون

أن يزوّجـه إحدى بناته؟ هـل تصلح زورا للزواج؟ مِن أنثى أم مِن ذكر؟ هي، زورا، تشتاقُ أحيانًا للمسةٍ مِن رجل، وتشرد لحظةٍ في نظرةٍ مِن عين طالبٍ يسـأَلُ عن كتاب، وهو، زورا، يوجعه تمايل النسـاء في الأسواق، بـل يحتلمُ بصورهنَّ في منامه أحيانًـا، وبينهما، زورا، الذي لا وجه له ولا جسد، لا يبتغي إلا كتابًا يدخله ثُمَّ يتبدَّد بين غلافيه. لكنَّ فضول مونون وآخرين في الحي والسوق لن يسفرَ عن خير أبدًا. أيُّ بلدٍ هذا الذي يصيرُ فيه المُزيّن أهم وأثرى مِن العُلماء والتجَّار؟ أيُّ بلدٍ هذا الذي يتجسس فيه كلٌّ عـلى صاحبه وجاره، بحثًا عن علامة قبح أو دليل ضعفٍ، ليبلغَ عنه الشرطة وينال المكافأة؟ بلدُ الـجَمـال؟ حقًّا؟ المزدهر في رحاب بَهار؟ وحبرُ أناملكَ يبقى معكَ حتَّى البيت، ولا تبدأين العجن والخبز إلَّا بعد أن تغسلي يديكِ حدَّ الوَجع، وتضعي ضفائركِ المعقودة فوق رأسـكِ، وترتاحي في ثوبٍ واسـعٍ قديمٍ مِن أثواب أُمّك. وربَّما يعثر ذات يومٍ على لغةٍ جديدة، تعلـو على ضمائر الذكور والإنـاث، لا يرتبكُ فيها واحـدٌ مِثله، ولا يتمايز فيها المخلوقُ بنوعه، بل ربمَّا بقدر جَمَاله، أو حُرّيته، أو قُربه مِن بَهار. تتسلَّى وهي تدبّر شؤون البيت باختراع لغةٍ خاصةٍ بها، وتغنّي بها كلماتٍ بلا معنى لأحدٍ سواها.

والدها على فِراشـه يغالب ضعفه ومرضه وحيدًا، وتعالجه بأعشـاب ووصفات مسـتمدة من كتـب الطِب، لكنه لا يتعافى. لا تملـكُ أن تُطلعَ

أحدًا على حاله الذي شَـوَّه صورته وبدَّد عافيته، فمصيره الطرد والنبذ لو انكشف أمره. وإذا طالَ غياب المعلّم النسَّاخ سوف تتزايد شكوك الناس وتتوالى أسئلتهم وقد يطلب بعضهم زيارته، فماذا سيقول لهم زورا؟ حتَّى إذا أعلنَ لهم سَفره، فلن تكفَّ الأسئلة، وإذا قالَ لهم مات سيسألون عن جثمانه، فماذا يصنع؟

كانت تطعمه في المساء حساءً بمعلقةٍ في يدها، حين أعرضَ عن الأكل، وخاطبها مخاطبة الأنثى كَما أصبحَ يفعل منذ مرضه وعُزلته:

لا آمـنُ عليـكِ مِـن شُرطـة الـجَمَال إذا انكشـف المسـتور يـا زورا. فلماذا لا نسلّم الأمر لبَهَار ونذعن للمكتوب، على الأقل، نكون قد دَفعنا أذاهم عنكِ.

مَن ذاك الذي يتحدَّث؟ هل سـمعتَ شـيئًا؟ كأنَّه صوتُ يردّد كلامًا أصفر، مِن ذلك النوع الذي يوهن العزم ويحبط الهمّة.

كفاكِ لَعبًا وعنادًا.

أنا لا أسمعُ شيئًا، مَن أنتَ يا عَمّ وماذا تقول؟

أنا في حُكم الميت، فلمَ لا أرحمكِ مِن مصير السجن والعذاب؟

بـأي لسـانٍ تنطق يا عَـم؟ أهذه لغة الرَّمـل أم الحِجارة؟ أنـا لا أفهمُ ما تقول.

لا فائـدة مِن الإنكار أو المِزاح، فلنسـلّم الأمـر لأولي الأمر، وليرحمنا بَهَار برحمته.

دَعني أخـبركَ بسرٍّ أيها الصوت الغريب، لي أبٌ عالِم وناسـخٌ جليل، وهـو أيضًا مُهرطـق كبير، فلا يؤمن ببَهَار ولا بغـير بَهَار، وعندما ولدتُ بـين الذكر وبين الأنثى أخفاني عـن الأعين وحَمَاني مِن أن أُلقى إلى الغجر والرُّعاة، وعلَّمني وأدَّبني حتَّى أدركتُ أن بَهَار ليس ملكًا على عرشـه في السـماء كما يصورونه، بل فكرة تتفتح في النفوس ونورٌ ينعشها ويحررها. آه لو كان أبي الشـيخ معنا هُنا الآن وسـمع حديثـك لأغرق في الضحك وسخر منك.

وتضحك زورا، ويبتسـم النسَّاخ المريض، ويتقطَّر بعضُ صَديدٍ لزج مِن بثورٍ في وجهه، فتمسحه عنه بقُطنةٍ في حُنو.

تقرأ له حتَّى ينام.

في الليل، على سَطح الدار كانت تُحرِّر نهديها وتتنفَّس وتقرأ، غافلةً عن تلصـص الحلَّاق مونون مِن غرفة الغِلال على سـطح داره القريبة. كانت تغنّي لنفسـها همسًـا باللغة التي ابتكرتْ مفرداتهـا ونحوها وصرفها. أنا الزور والبهتان والحق والعِرفان، أنا الزُهير الزاهر والزَهرة الزهراء. افتحي ذراعيكِ وساقيكِ للقمر يا زورا، لتحبلي بالنور، وانشر قضيبك حتَّى بنات النجوم يا زورا لتتخصّب السماء بالأفراح. ثم تداعب نفسه ويداعبها بناتُ

بَهَار، إلى أن يصحو فزعةً، على صوت طرقاتٍ غاشمةٍ تكاد ترجّ الدار كلها. وكانت في الـحُلم تتقلَّب بين رجلين، أحدهما قبيح والآخر جميل، لكنهما متشابهان كأنهما واحد، وهي مع أحدهما أنثى ومع الآخر ذكر، وبين الثلاثة كتاب جميع صفحاته بيضاء.

على الباب وقفَ الحـلَّاق مونون ومعه نفرٌ مِن رجال شُرطة الـجَمَال، أولئك المعروفين بوَسامةٍ قاسية.

(8)

أُلقيتْ زورا في السِجن أيامًا عديدة قبل أن يعرضها أحد الحرَّاس على حاجب الملك الخاص، ثمَّ مثلتْ بين يدي الملك وكشفوا له عن بدنها وأخبروه كيف يتلوَّن صوتُها كأنَّها مسكونة بكثيرٍ من الرجال والنساء والأطفال. بعدَ نظرةٍ سريعة أمرَ بأن تؤخَذ إلى مُستودَع مسوخه الخاص، بيت العجائب الذي لا يعلمُ بوجوده إلَّا قِلّة.

كان زورا يعرف أنَّهم أخذوا أباه المريض وألقوا به خارج أسوار المملكة، ليلقى هناك مصيره، فيعيش أو يموت، مصيرَ كل شيءٍ قبيح منبوذ خارج هذا البلد. أحيانًا كان ينتابه السخط على كل شيء، فتلعن حتَّى بَهَار الذي يعبده هؤلاء. ثمَّ تُغنّي بلغةٍ مفهومةٍ حينًا ولغتها الخاصة حينًا آخر، بصوت

الأنثى حينًا وصوت الذكر حينًا، تغنّي لأبيها المفقود وعرائسها القماشية القديمة وتَنُّور الدار والقمر الذي كان ينزل وينام معها. كاد يقوده الجنون لأن يكره أباه نفسه الذي لم يُلقِ به عند مولده إلى قبائل الرُّعاة فيعيش هناك عيشة حرة وسط ما يسمّونه القُبح. ها هي تجد نفسها وسط عجائب ومسوخ مقتنيات الملك الخاصة. تسلّيهم بالغناء والشِّعر والحكايات، وتدفع أذى بعضهم بادّعاء امتلاك تعاويذ سحرية، ولم تجد مَن يكذّبها بين المشوّهين، حتَّى الحرس اجتنبوها أوَّل الأمر، ثم أنسَ بعضهم إليها وطلب منها كتابة رسائل إلى معشوقاتهم مِن جواري القصر وخَادماته فوافقت. جلبوا لها أدوات الكتابة ووصفوا لها الحبيبات راوينَ لها طَرفًا مِن حكاياتهم معهنَّ. مِن هناك تسرّب عطرُ زورا وحبرُ أصابعها إلى أروقة الخدم، ثم أجنحة الحريم، ثمَّ خاصة الجواري والمحظيات، حتَّى بلغ بعض شِعرها سمع الملك الحقيقي في محبسه، وسأل أخاه عن ذلك الشاعر الحبيس المجهول. فتذكَّر الملك الجميل سجينه المخنَّث الجديد، ولم يكن قد أطلعَ أخاه بعْد على سِره المشين، ثم زعمَ أنَّه كان شيخًا طاعنًا مات في محبسه منذ أيام.

كُلَّما عجزَ الحبيسُ عن كبح جماح رغبته، كان يُسرّ لأخيه الجميل بإشارةٍ مُستترة، فيفهم هذا ويأمر بحفنة مِن الجواري، ليختارَ أخوه إحداهنَّ مِن وراء حجاب. ثمَّ تُعَدّ وتُرسَل إلى جناح معزول، حيث يستقبلها الملكُ المُعلن وبعد قليلٍ تُسقَى ما يجعلها تتأرجّح بين الوعي والغياب، عندئذٍ

يدخلُ الدميمُ الأحدب من بابٍ سري ويمضي أخوه الجميل. عندما كانت تفيق الجارية في الصباح التالي مِن سَكرتها تظلّ تائهةً لأيام، وهي لا تدري هَل كان مَن وَاقعها مَلاكًا أم شيطانًا.

كان الميزان بينهما قد اختلَّ شيئًا فشيئًا، وقد بدأ الجميلُ يغيب وتتأخر زياراته إلى سجينه الملك، خصوصًا بعد أن أطلعه جده الوزير قبل رحيله على السر القديم. صارَ يقضي ويتصرّف في أمور المملكة على هواه، مرتجلًا دون مشورةٍ من أخيه أو من سواه، حتَّى لاحظَ رجالُ الدولة وبعض الحاشية تناقضًا في قراراته. لم يُبدِ الحبيس غضبًا أو استياءً، ظلَّ غارقًا في كتبه ومخطوطاته، منتظرًا زيارة الغندور متى طابَ له. حتَّى أتاه ذات ليلةٍ يترنح مِن السُّكر، وأفضى بسرّه بصوتٍ متهدّج:

أخي الحكيم، ليس لي مَن أسأله النصحَ والإرشاد سواك، فأنتَ عقلي المنير مهما أنكرتُ هذا أو تجاهلته.

في هذا القِدر قهوةٌ قوية، لعلَّ أخي الجميل يودّ رشفة مِنها، ثم يقول ما عنده، فكم أحبُّ أن أسمعه وأراه، فهو وجهي المنير، مهما أنكرتُ هذا أو تجاهلته.

أَعنّي على بلائي يا أخي، لا يعجبني أي شيء جميل، ولا تهفو نفسي إلَّا لكل غريبٍ وشاذ. أجد متعتي في القبح والتَشوّه فقط.

فلتجد متعتكَ أنَّى تشاء، أنتَ ملك هذا البلد وقد خصّك بَهار بنصف

حُسن العالمين، فسلّم لمشيئته ولا تبخل على نفسك بالسَّكينة.

بَهار، آهٍ مِن بَهار هذا، أحيانًا أشعرُ أنه يكرهني بقدر ما يحبّك.

بهَار لا يكره ولا يحب، يُبدعُ فقط، الحب والكره ابتلاؤنا نحن.

أرى نفسي في الحلم أحيانًا على صورتك وأنا أتمرَّغ في فظائع فاحشة لا يُدانيها شيءٌ ممَّا أجربه في يقظتي.

وأنا أيضًا، أرى نفسي على صورتك، في الحلم واليقظة أيضًا، أهيمُ في البساتين والوديان وراء آيات الحُسن التي طالما قرأتُ عنها، ولكن ماذا علينا أن نصدّق؟ ما نعيش أم ما تصوّره لنا أوهامنا؟

أنا لم أعد أعرف شيئًا، لم أعد أعرف ما الوهم وما الحقيقة. قُل لي مثلًا، أينا الملك الحقيقي؟ أينا الأصل وأينا الصورة؟

الأسئلة علامة طيبة على الدوام، حتَّى وإن بقيت بلا أجوبة.

لكن، ألا تخافني؟ ألا تخشى مثلًا أن أخلعكَ أو أنفيك فأصير الملك الوحيد في السر وفي العَلن؟

لن يفيدني خوفي شيئًا، وإن حدثَ وفعلتَ فما الذي قد يتغيّر في حالي أو حالك؟ ثُمَّ إنك الملك حقًّا، في السر وفي العَلن، وفي اليقظة والنوم. وما أنا إلَّا ظل مُخزٍ، تعطف عليه لأنه قطعة منك.

لا تسخر مِن عقلي البسيط. إن لم أرجع إليك في كل أمر طاشت أحكامي.

هذا لأنَّك كسولٌ فقط لكنك لستَ أحمق، ليتك تستغني عن مشورتي وتريحني من همومكم المزعجة تلك.

إنك في محبسك هذا تعرف المملكة خيرًا ممَّن يسعون فيها بالليل وبالنهار.

ربما، لكنها معرفة الكلمات والأعداد والخواطر، فلا أشم عبير بساتينها ولا أبارك الرضَّع بعد مولدهم ولا أسير في موكب عيد الكروم مكللًا تحت أمطار الورد وهتاف الناس.

حديثك يعتصر قلبي، فأنا لا أشعرُ بجمال شيءٍ مِن هذا. أحيانًا أشعرُ أنكَ الشيء الوحيد الجميل في مملكتنا.

هذه أظرف نكتة سمعتُها، واصل هكذا وسوف تنافس مهرّجي القصر.

أنا تعبت ولا بدَّ أن أذهب للنوم، ألا تشتهي شيئًا آمرُ لكَ به يا أخي الحبيب؟

الملك يأمر يا مُهرّج القصر.

وعلينا السمع والطاعة.

أريدُ كتابًا، قرأتُ عنه كثيرًا لكني لم أرَه قَط.

آتيكَ به ولو مِن آخر الدنيا.

بعثتُ في طلبه قبل ذلك، بلا جدوى، اسمه مرآة الجميل، وكاتبه مجهول، ويبدو أنّه من الكتب التي يُحرَّم نَسخها وتُحفَظ فقط في الصدور.

كأنَّه مِن وَضْع بَهار دامَ حُسنه.

بَهَار لا يكتب ولا يتكلَّم، يرسم فقط، ونحن نُفسّر الرسم كما يحلو لنا.

(9)

يَتلو زورا ما يزعم أنه يحفظه في صدره مِن الكتاب على الملكين المنصتين:

«ومَن قالَ إنَّ الحُسنَ واحد والقبحَ واحد؟ مَن قال إنهما ليسا كثرة وليسا شقيقين متعانقين؟ ومَن يملكُ حقّ أن يقرّر ما الطيب وما الخبيث؟ ما يبقى وما يُلقى؟ الكهنة؟ لَم يمنحهم بيما هذا الحق وما كان لهم، ولو كان بيننا اليوم هُنا لشَنقهم على أسوار المملكة. ولقالَ لنا إن بَهَار لا يفضَّل بعضًا مِن خلقه على بعض، بسبب شامةٍ في الخَد أو رشاقة في القَد، وأنَّ نعيمه ليس موكبًا للحُسن المصطنع، بل شبكة لا نهاية لها من الألوان والأشكال».

(10)

ونادى المنادي في الطرقات، كلّ مَن يعرف خبرًا أو يحفظ بعضًا مِن كتاب مرآة الجميل يحضر إلى القصر وسوف يهبه مولانا ما يُغنيه بقيه عمره أو يتمنَّى عليه ما يشاء. لم يتجرَّأ أحد على الكذب وتلفيق حكاياتٍ مِن ذلك الكتاب المجهول، خشية العواقب، فأعرض الناس عن المغامرة، عدا زورا الذي سمعَ بالأمر وهو في سجن الملك الجميل وبين مسوخه الشائهة، فأعدَّ نَفسه وانتظر الفرصة السانحة.

بين أولئك المُسوخ أحسَّ زورا أنَّ بَهار، لو كان له وجود، يميلُ أحيانًا إلى اللعب والسخرية، فكأنّه صنعَ زورا وهو مخمور، على نفس حال الأمير الجميل حينما يتسلل إلى هذا المخبأ السري كل بضع ليالٍ، ليتسلّى.

لم تعد حانقةً على أبيها أو أمَّها؛ لأنهما أخفياها وقَسماها اثنين، صارتْ تفكّر في جميع أمثالها، هؤلاء المحبوسين ضِمن مقتنيات الملك، والآخرين المنبوذين خارج الأسوار، بسبب حَوَل أو صَلَع أو عَرج. زالَ نفورُها الأوليّ مِن رفاق حبسها وأخذت تتحدَّث إليهم وتستمع إلى حكاياتهم وتكتشف في داخلهم حُسنًا نادرًا لا يظهرُ إلَّا لمن يقترب ويمد يده ويلمس في حنان. فهم زورا أنَّ هذا ليس عطف المجزوم على المجزوم، بل قدرة كل إنسانٍ على أن يرى نفسه في الآخَر، مهما بدا صاحبه غريبًا أو بشعًا.

رأى أشخاصًا تتقاسم ملامحهم الشيخوخة والصبا، وآخرين وجوههم في ظهورهـم، وامرأة أصابعها أغصانٌ مورقـة. رأتْ زورا كثيرين مثلها، لا هُم رجالًا ولا هُم نساءً، على درجاتٍ كثيرة مِن التأرجح بين الطرفين. رأى فتياتٍ نصفهن السفلي على صورة السمك، يسبحن بذيولهنّ في بحيرة زجاجية كبيرة تحت أرض الجنـاح، ويطلعن فقط بأمر الملك. رأت امرأة وأطفالها السـبعة وكلهـم بأجنحة حقيقية صغيرة، لكنهم لا يسـتطيعون الطيران. رأى أناسًا بعشرات الأذرع والسيقان، وأناسًا يغطي أجسامهم الشَّـعر، وآخرين بذيولٍ طويلة. كانوا معظمهم يُعامَلون كحيواناتٍ شِبه آدمية، تقدّم عروضها الطريفة للملك كلَّما أتاهم ثملًا، ليتسلَّى.

كان يطلـب مِن زورا أحيانًا أن تُغنّي بأصواتهـا الكثيرة العجيبة، بينما يشاهد بعض عجائبه تلعب أو تتضاجع مِن حوله، لكنها هذه المرَّة ركعت أمامه وقالت:

أنـا أعـرف الكتاب الذي يبحـث عنه مولاي، حفظته عـن أبي كلمة كلمة.

ثمَّ روتْ له، حينما أفاق في الصباح التالي، حكاية أبيها النسَّـاخ، المنفي خارج المملكة، وكيف علَّمها كلَّ شيء وأطلعها على أسرار اللغة والبلاغة والـجَمال. كان زورا يكذب، ولم يكن قد مرَّ به طوال سنوات عمله مع أبيه كتابٌ بهذا الوصف قَط. لكنَّ الملك سألها متشككًا:

وكيف نعرف أنه الكتاب المقصود؟

لا سبيلَ لذلك إلَّا بالاستماع إليه.

وماذا تطلبين جزاءً لكِ؟

أن تُرجعوا لي أبي، وأن نُحبَس معًا.

كانت زورا تعرف أنَّها تُغامِر بكل شيء، لكنه شعرَ أنَّ بَهَار يحرسه وأنَّ حكمة المسوخ لن تتخلَّى عنه. واقتادوه إلى مَخدع الملك الحقيقي القبيح، حيث اتخذ مجلسه وراء أحجبةٍ كثيفة لا تكشف منه إلَّا ظلًّا، لكنَّ زورا أحسَّت بوجوده كواحدٍ منهم، ممَّن وضعَ فيهم بَهَار سرَّ قهقهته المخمورة. تظاهر الجميل بالإنصات لما يحكيه زورا، وهو جالسٌ أمامها، يتململ لبعض الوقت، إلى أن أخذته أصوات زورا مِن يده إلى حيث كان يريد أن يذهب طوالَ عمره دون أن يعرف اسم ذلك المكان أو صفته. فتنه الصوت الذي يتلوَّن ويتبدَّل مع كل معنى جديد، بقدر ما فتنه المعنى الذي يُرواغ ويتملَّص، فيجيبُ وكأنه يسأل، ويخفي وكأنه يُعلن.

على مدى ليالٍ متواصلة كان زورا يُقَاد إلى الجناح السري، ويتلو عليهما بعض ما يزعم أنَّه يحفظه مِن الكتاب المجهول ذلك، وفي كل ليلة كانت زورا تترك خلفها زهرةً حمراء في موضع جلوسها، تشتريها برسالة غرام

لأحد الحـرَّاس. وفي كل مرَّة كانت زورا تفتـحُ فمها وهي لا تدري ماذا ستقول، لكنَّ بَهَـار لم يتخلّ عنه، فكانت تتصيَّد مِـن عتمة المخدع كلامًا جميلًا وربمَّا بلا معنى، مثل زهرتها الحمراء.

(11)

تقول زورا للملكين:

«ومَـن قـالَ إنَّ ييما لم يتمزَّق قلبه وهو يرقـب الطوفان مِن أعلى قلعته الحصينـة يغمرُ بمياهه كل شيء ويبتلع كل حَي. لو كان بيده لَشَـيَّد قلعةً تسعُ الكون كله، لـو كان بيده لضمَّ إليه القبيح قبـل الجميل والضعيف قبـل القوي والعليل قبـل الصحيح. لو عادَ ييـما إلى بلدنا اليوم لأجهش باكيًا من الحسرة إذ يرى الرُضَّع والشيوخ يُنتزعون مِن أهلهم ويلقى بهم إلى مصـيرٍ مجهول وسـط الغرباء، لمجرد أن بهم عيبًـا أو نقصًا. لو عادَ ييما إلى هنـا اليوم لفتحَ أبواب هذه المملكة، المنسـوبة لبَهَار دام حسـنه، أمامَ الجميع على السـواء، ولفتحَ أعين أتباعه عـلى الـجَمَال المحتجب بلا ذنبٍ وراء أستار الخوف والخزي. ولقالَ للقبيح لا تخشَ شيئًا واخرج واظهر على الناس فلستَ قبيحًا إلَّا بقَدر الشهوة والولادة والموت، ولقالَ للجميل لا تخشَ شيئًا واسكن واعتزل الناس فلستَ جميلًا إلَّا بقدر الشهوة والولادة والمـوت. وما أنتما إلَّا ظِلين لبَهَار، ملكٌ واحدٌ له ظاهر وباطن، كلٌّ منكما

شربَ نصف كأس الحقيقة. وإذا صارَ الاثنان واحدًا، ذات يوم، لأشرقت هذه الأرض بنور ربها، صاحب الألف وجه».

(12)

يزعمُ الرواي الكذوب، الذي هو أنا، يا سادة يا كرام، أنَّ والد زورا رجع إليها وتعهده الأطباء بالرعاية حتَّى استعاد رونق شيخوخته وصفاء عقله، وأنَّه لم يكن آخر العائدين مِن المنفى، فقد بدأت الاستثناءات على استحياء تسمح بعودة كل مَن طابَ جرحه أو يمكن معالجته أو تصحيح عاهته، ثمَّ بدأ يتسلل آخرون لا شفاء لهم غير الموطن والأهل والأحباب.

واصلتْ زورا حكاياتها للملكين، وقد خرجَ الملك القبيح أخيرًا من مخبئه وسارَ نحوها وتناول منها الوردة يدًا بيد. بينما كان الملك الجميل يغرق شيئًا فشيئًا في عالمٍ جديد مِن الكلمات والمعاني، يستعيرُ كتب أخيه ويعتزل الدنيا، حتَّى أطلقَ سراح جميع سجنائه المسوخ وأعلنَ توبته، وأخرس بعض الكَهنة وسجنَ آخرين، حتَّى قال الناس إن طوفانًا جديدًا سوف يحلّ عليهم عقابًا على هَدم أصول دين آبائهم وأجدادهم. وظهرَ في الطرقات الأعور والأصلع وذو الكِرش، وكشفت بعض الوجوه عن الأسنان الفاسدة والبشرة المنقورة والشفاه الأرنبية، فقال القائل: سيعود الجَمالُ عُملةً نادرة كما كان في الزمان القديم، فرحمتكَ بنا يا بَهَار.

خـرجَ الملك الحقيقي على شـعبه في يوم عيد بَهَار، وعـن يمينه وزيره الجديـد زورا، في هيئة وثياب تجمع بين ما للذكر وما للأنثى، واجتمعَ في ساحة القصر القبحاء والمنبوذون السابقون، وبعد أن سمعَ الجميع قواعد الشريعة الجديدة، انبعثتْ الموسيقى ومدَّ المحتشدون أذرعهم يتلقَّون مَطرًا من زهور حمراء.

دوائر ذات الرداء الأحمر

كلُّ شيءٍ يتكرّر، مع كل نسخةٍ رَسميةٍ مِن الحكاية.

كلُّ شيءٍ يتكرّر، مع كل طفلةٍ جديدة تسمع الحكاية أو تشاهد الفيلم لأوَّل مرة.

كل شيءٍ يتكرّر، مع كل صباحٍ جديد تصحو فيه ذات الرداء على نداء الغابة يقبّل خدها الناعم.

في كلِّ صباح كانت الغابة تُعدّ ابنها النِداء، في غَبَش السَحَر، مِن أجل رحلته إلى غرفة البنت بطلة الحكاية، والتي إن ظلَّت نائمة فلن يُفتَح كتابٌ ولن يُعرَض فيلم.

في كل صباحٍ كانت الغابة تُلبس ابنها النِداء زيه الرسمي، زي فتى الكشَّافة. إنه مائل للبدانة وبشرته وردية، ويبدو بلا عمرٍ محدّد، لكن ذكاء عينيه ساطع، يظهر ويختفي حسب الحاجة، ويغيّر أدواره على هواه، ولعلَّه الشاهد الوحيد على النسخة الأصلية، وقد نسمّيه هِرمس صديق الإنسان أو أي اسمٍ آخر يبدو ملائمًا، وقد نتخذه دليلًا غير متحيّز لجانب، وسط

الطرق المتقاطعة للغابة المخيفة، برواياتها المتعارضة عن الحقيقة.

الحكاية الرسمية رواها الإنسان، وليس الذئب مثلًا، أو أي حيوانٍ آخر ممَّن تقاطعتْ طرقهم بطريق البَشر، أو طَريق ذات الرداء خصوصًا.

الحكاية الرسمية يرويها غالبًا رجلٌ أبيض، معتمدًا على ما عاينه بنفسه وغافلًا عن كل ما يجهل اسمه أو صفته، ومُستبعدًا كل ما لا يروق له من أخبار النساء، وهكذا فإنَّ ذات الرداء لم تقدّم مساهمة يُعتد بها.

سنوات والبنت كما هي طفلة صغيرة، تغطّي رأسها وكتفيها بالعباءة القطيفة الحمراء التي أعطتها اسمها الأبدي حتَّى نهاية الزمان.

سنوات وهي بلا اسم إلَّا ذات الرداء الأحمر، الذي خاطته لها جدتها سِجنًا صغيرًا على مقاسها، حتَّى تظل هكذا قزمة، غير عاقلة، صورة مطبوعة، تخدمها وتربطها بالعالَم، وتجلب لها النبيذ المعتّق وفطائر اللحم الطازجة.

الحكاية الرسمية غالبًا ما يرويها الرجل الأبيض، صاحبُ السلاح الذي يظهر في اللحظة الأخيرة، لكي يضعَ جميع الأمور -كما يقولون في الكتب- في نصابها، فيقضي على الذئب ويبقر بطنه ويُخرج الجدة وذات الرداء سالمتين. تردّد كلٌّ منهما أكاذيبها، فينسجُ صاحبُ السلاح منها نسخةً مُيسّرة يمكنه أن يفهم أوّلها مِن آخرها، دون أن ينسى أن يُضمّنها درسًا مستفادًا يحذر فيه الفتيات الصغيرات من شر الذئاب اللعينة إذا خالفن نصائح الأهل وابتعدن عن الطريق المرسوم.

تقول الأم وهي تُسلمها السلّة: «في الغابة مفاتن كثيرة، إن استسلمتِ لها مُسختِ حشرةً بشعة تشمئز منها نفوسُ الناس وتدعسها الأقدام بلا شفقة. لا تنصتي لَئلا تشتهي النظر، وإذا أنصتِ لا تنظري لَئلا تشتهي الاقتراب، وإذا اقتربتِ لا تلمسي لَئلا تشتهي التذوّق. خلفَ كل عتبةٍ مِن تلك هاويةٌ بلا قرار، فانتبهي حتَّى لا ترجعي إلينا بالعَار في آخر اليوم، وإيَّاكِ أن ترفعي عن كتفيكِ عباءتك الحمراء مهما حدث».

يقول الذئب للبنت مُوسوسًا: «ما لكِ تسيرين وكأنكِ تلميذة في طابور الصباح، ما لكِ تسيرين وكأنكِ أرملة جديدة في جنازة زوجها، ما لكِ تسيرين وكأنكِ جندي يتوجّس لقاء العدو، لن تفوتك الحصة الأولى، لم يمت لكِ زوجٌ، ما من معركةٍ هناك وأنا لستُ عدوًّا لكِ».

في كل صباحٍ كانت الغابة تكرر روتينها اليومي، وتُعدّ الابنَ الوحيد لرحلته إلى بيت ذات الرداء، فتُلبسه زِي الكشافة، وتزوّده بزمزمية المياه ومصباح اليد وحقيبة قماشية على ظهره فيها كل الأدوات الضرورية لتأمين مغامرٍ صغير، ليتتبع أثر الحقيقة ويميط عنها -كما يقولون في الكُتب- اللثام. يسير الولد الممتلئ الوردي وطيور الغابة مِن حوله قد بدأت تلتقط بمناقيرها أوَّل خيوط الفجر، يردِّد معها لحنًا أخرسَ بقدميه على الحصى والأوراق الجافة والأغصان المتكسّرة.

تقول الأم لابنتها وهي تعدّ للجدة فطائر اللحم: «إن لم تتعلّمي قريبًا كيف

تعدين هذه الفطائر، وألف صنفٍ آخر، ستكونين عملة زائفة في السوق، يرميـكِ الناس على بعضهم البعض ويهربـون منكِ وربما يرحمكِ بعضهم ويعاملكِ كمتسـوّلة. المرأة متاعٌ زائد إن لم تعـرف كيف تُطعم الجائعين، فلا تخذليني يومًا وكوني ملكةً في مطبخك».

يقـول الذئب لها، وهي تتابع طريقهـا ولا تلتفت نحوه: «هل جرَّبتِ مرّة، ولو في نسـخة واحدة من حكايتكِ، أن تسـتريحي في ظل شجرة، أن تـشربي جرعة مـن النبيذ أو تـأكلي قطعة من الفطـير. لا توجد معركة في انتظارك، لا في المطبخ ولا على الفراش ولا وسـط هذه الغابة. دَعكِ مِن أمّكِ، فقد غسلوا دماغها مِن قديم الأزل. ولا تتعجَّلي الذهاب إلى جِدّتكِ، تلك الساحرة الشـمطاء، فلن تذهب إلى أي مكانٍ، سوف تظل إلى الأبد ممددة في فراشـها تُبحر، بالريموت كنترول، بـين قنوات التليفزيون بحثًا عن برنامج مسابقات جديد، على أمل كاذبٍ في تتويج خلودها باستعادة الشـباب الأبدي. ممددةً في فراشـها، تتظاهر بالمرض كعادتها كلَّما طرقتِ باب كوخها النائي. افتحي عينيكِ، انظري إليَّ».

لا يقول هِرمس، فَتى الكشَّافة، شيئًا، ينظر ويبتسم فقط.

لا يقـول هِرمـس شـيئًا، بعـد أن يصـل أخـيرًا إلى البيـت المعلـوم مع تَـمام يقظة الكائنات. إنه مُجهَّز بكل ما يحتاج إليه، يُلقي نحو الشرفة حبلًا في طرفه خُطَّاف، وبعد بضع محاولات مُخفقة، ينجح في تثبيت الخطاف في الحديد المشغول لسور الشرفة.

لا يقول هِرمس شـيئًا، إنه فقط ينظر ويبتسـم، ولا يعتبر نفسه عاشقًا أو جاسوسًـا، هوَ طالب عِلم، كائنٌ فضولي، أو ببسـاطة فتى كشَّافة لديه كل الوقت في العالَم لكي يتتبع خيط الحكاية حَتَّى أصلها وفصلها. ها هو يقـفُ عند طرف فراش ذات الرداء، من ناحية قدميها البارزتين من تحت الغطاء، كانتا صغيرتين للغاية. إنَّه مجهَّز بكل شيء، يُخرج كاميرته بسرعة، مُستجيبًا كما اعتاد لدافع اللحَظة. يلتقط صورة للقدمين النائمتين. يتريث لحظـةً بعد ذلك، لأنَّ دوره سـينتهي عن قريب، هذه هي لحظاته الأخيرة كشخصيةٍ لها وجود شِبه مادي، بعدها سيعودُ خَفيًّا، يُدرِكُ ولا يُدرَك، ولا يُشـاركُ أبدًا، مِن غير أن تُحزنه عُزلته هذه بالمرة. ها هو ذا يقترب منها في هدوءٍ وأناة، يطبع على خدها قبلة صغيرة بشـفتيه الممتلئتين. وما إن تفتح الصغيرة عينيها، حتَّى يكون قد تلاشـى في الهواء، ولا مرة واحدة خلال آلاف السنين التي عاشتها ذات الرداء في الحكاية رأته، تشعر بوجوده فقط، تحلم به في صورٍ غير واضحة، لكنها تعتبر تلك الأحلام وسوسة الشياطين، شأنها شأن حديث الذئب في رحلتها اليومية المتكررة أبدًا.

يقول الذئب: «افتحي عينيكِ وانظري يا ذات. افتحي شرفتكِ وانظري، هذا كله وهمٌ، صَنْعة فَنّية متقنة. انظري، لم يتبدَّل شيء. لا تتجدّد الفصول ولا يتغير الطقس في هذه الحكاية أبدًا. إنها اللعنة، ألا تفهمين؟ لعنة أن نظل كما نحن، نخدم أغراض مَن يكتبوننا ومَن يقرؤوننا. نحنُ دُمَاهم المُذعنة،

وسـوف نبقى على هذا إن لم نفعل شيئًا، إن لم نَعصِ الأوامر، إن لم نلتفت نحو هوامش الصفحة وما بين السطور ونتدخَّل في اللعبة».

لا يقول هِرمس شـيئًا، فالفراغُ بين السـطور هو بيته، وهو لا يشـعر بالحاجـة للتدخُّل في اللعبة. لا يسـاوره الضجر من عـدم تجدُّد الفصول والمواسـم، وسـوف يسرّه أن يكرر تأمّله لذات الرداء كل صباحٍ إلى ما لا نهاية. الجنة عنده نَغمةٌ واحدة تتكرر بلا نهاية.

الحكايـة الرسـمية لا تعترف بهِرمس، الرسـول الأمـين بين الكلمات وأشـيائها، وبين الأشياء وكلماتها، غير أنه لا يطلب اعترافًا به، يرضيه أن يبقى جنديًّا مجهولًا، وليس بحاجة إلى نصبٍ تذكاري.

الحكاية الرسـمية رواها إنسـانٌ، لعلّه ذكر أو أنثـى، لكنه يظل أعمى وأصم وأبكم طَالما بقى جاهلًا بما بين السُطور.

تقول الأم لذات: «كثرة الكلام علامة استهتار وقلّة حياء، والرد على الكلمة بكلمتين يُنفّر الرجل العادي، فما بالكِ بالنبيل الذي اعتادَ أن يؤمَر فيُطَاع؟ كوني جاريته، لتكوني مَلكةً في بيته. وإذا حققتِ له أفكاره قبل أن ينطقَ بها، فهذا هو تاجكِ وعرشكِ».

في رأس البنت سُوق.

في رأس البنت ذات الرداء الأحمر سُوقٌ منصوب على الدوام.

في رأس البنت ذات الرداء ســوقٌ مِن كلامٍ وأصوات متداخلة، وهي ســاكتة أغلب الوقت، تحلمُ بصبيٍّ بـلا ملامح واضحة، لكنه ربما يرتدي زيًّا رســميًّا ظريفًا. تتمنى أن تقابله ذات مرة في رحلتها، لكنها لا تجد غير الذئـب الذي يواكب سـيرها، ولا يتوقّف عن الوسوســة في أذنيها حتى تكاد تبلغ كوخ جدتها.

مع كل تكرارٍ تتأكَّد الحكاية.

مع كل تكرارٍ تتخذ الحكاية طَبعةً جديدة وطابعًا جديدًا.

مع كل تكرارٍ يتســلل تغيرٌ طفيف يكاد لا يُرى بالعين المجرّدة، إلَّا إن كانت عينًا مسحورة مثل عين هرمس الذي يلحظ أهونَ انزياحٍ عن النص الأصلي، ولو كان علامة ترقيم تُحذَف أو تُضاف، لا يفوته شيء، لأنَّ لديه كل الوقت، لأنه لا يتذمّر ولا يشتكي، لأنه يقدّس الفضول ويحب البَشر.

في رأس البنت ذات الرداء تتصارع أمها مع الذئب وآخرين، وأحيانًا تتخذ أحلامها طابعًا عنيفًا أو فاحشًا.

في رأس البنت ذات الرداء تموت جدتها، تقتلها هي مرَّة ويأكلها الذئب مرَّة، وتضاجع هي الذئب على فراش جدتها في إحدى نسخها مِن الحكاية.

في رأس البنت ذات الرداء وفي أحلامها تتسلل خارج الحكاية، وتنسى كلام أمّها لبعض الوقت. فتُنصت وتنظر وتقترب وتلمس وتشمَّ وتذوق،

باحثةً عن شيءٍ لا تدري ما اسمه بَعد، رُبَّما عن صبيٍ ممتلئ الجسد ورديَّ البشرة يناوش مناماتها، ويشدّها طيفه للاستيقاظ، للخروج مِن أَسر الحكاية، لخلـع هذا الرداء الأحمر الذي كانـت ذات يومٍ تحبّه وصارت تمقته، لكنها تتجاهل طيفَ الصبي وسرعان ما تضل الطريق.

يقول الذئب: «نحنُ أسرى، أنا وأنتِ، مِثل جميع تلك المخلوقات مِن حولنا، وقعنا منذ زمنٍ بعيد في شَـبكة سـحرهم، سحر المسكين بالقلم والدفاتر وآلات الطِّباعة. لكني كشفتُ لعبتهم، وأقسمتُ أن أفضحهم، تمردت وثُرتُ على دوري المرسـوم، لم أعد مفترسًا، صرتُ نباتيًّا وعلّمت نفسي التأمُّل وتمارين التنفُّس العميق. حذَّرتُ الآخرين دون جدوى حتى سـئمتُ وكدتُ أيأس. لم يعد لي أملٌ سواكِ، أنتِ بطلة هذا الكتاب وكل ما فيه من مخلوقات يخدمُ صورتكِ فقط. أملي أن أجعلكِ تستيقظين وتتذكّرين ذاتك الحقيقية، ربما ننجح في الهروب جميعًا من هذا السجن».

اسـتيقظتْ ذات، وكانت قد غفت في الظل بعـد قضمة فطير وشَربة نبيذ.

استيقظتْ ذات، وأحسَّت كأنها وُلدتْ قبل قليل. لأوَّل مرة يهدأ السوق في رأسـها، لأوَّل مرة تشعر بأنها إنسـان حقيقي. تلمس جسدها وتتأمّل مـا حولها بعينين جديدتين. كل شيءٍ يحـدث لأوَّل مرة. كانت جائعة، لا للطعام ولا للشراب، بل لكل ما حولها، لكل ما يمكن لحواسها أن تمتصه، وبدا أن جوعها الوليد هذا لن يهدأ لآلاف السنين.

استيقظتْ ذات الرداء الأحمر، وخلعت رداءها وعلّقته على فرع شجرة، وأخذت تتجوَّل بين صفحات الحكاية على حُريتها تمامًا. تفتحتْ داخلها براعمٌ جديدة وغريبة عليها، ومع تكرار اللعبة في كل يوم، أو كل عِقد، أو كل قَرن، تثبّت قدميها أكثر في أرض الحكاية، تتعلَّم بسرعة كيف تتحكّم باللعبة وبالكائنات مِن حولها. كانت تغامر، دون تردد ولا خشية، بالمضي أعمق، كل مرة، في مسالك الغابة. لم تعد تنصت لحديث الأم ولا الذئب، الذي يظهر بين الحين والآخر ليحذرّها من تناول فِطرٍ مسموم أو الاقتراب مِن فخ صيّادين مخفي جيدًا. لم تعد تكترث، تأكل وتقع في الفخ وتسخر منه. ما دامت رسمةً في كتاب فلن يضرها شيء. أشعلتْ حروبًا صغيرة، أقامت ممالكَ للنمل ودمّرت بيوتًا للنحل، وأخذت تجرّب لعبة الهدم والبناء آلافَ السنين مثل ربّة مخمورة. حتَّى الغابة صارت تخاف ذات الرداء.

تقول الأم: «لا شيء أهم مِن البيت. اتركي كل شيء ينهار، ولكن حافظي على بيتك ثابت الأساس. لا شيء أهم ممَّا يراه الناس منكِ. افعلي كل شيء، ولكن تجنَّبي الفضيحة. قد يتغيّر الزوج أو يرحل الأب، لكنَّ البيت يبقى راسخًا ما دامت المرأة فيه، تحكمه، مِن رُكن مطبخها. تتغير القوانين والشرائع، وتبقى الولادةُ سرَّ أسرار الخلق، بحبل السرّة اربطيهم إليكِ، وحرّكيهم كما تشائين. خيوط الحنان الحريرية الواهية أشد بأسًا مِن جيوش الإسكندر وأنفس من كنوز سُليمان، فتعلّمي كيف تنسجين منها شبكتكِ».

تقول ذات، لنفسها: «أنا الآن حرة ومستقلة وجبَّارةٌ في الأرض».

تقول ذات لأمَّها: «اسكتي قليلًا، أنتِ وأمّكِ سبب بلائي. اسكتي ودعيني أضع قواعدي لنفسي، وأبني وأهدم كما أشاء».

تقول ذات، لصديقها الذئب: «لماذا خصيتَ نفسك؟ لماذا لم تعد تشارك مخلوقات الكتاب أعيادها؟ لماذا حرَّمت على نفسك اللحم ومتعة افتراس الدُّنيا؟ هل تظن أنك أفضل مِن الآخرين؟ أنا الآن حرة مُستقلّة، وأنتَ مَن فتحتَ عينيَّ وأيقظتني، فلماذا حوَّلت نفسك عنزةً مثيرة للشفقة ونسيتَ سطوة المخلب والناب؟».

يقول الذئب: «مَن أيقظكِ هو نفسه مَن أيقظني، فتًى جميل، له أسماءٌ كثيرة وكلها زائفة. هو مَن تبحثين عنه في مغامراتكِ المجنونة وحفلات مجونكِ مع حيوانات الغابة. هذا كله ماءٌ مالح يا ابنتي، كلما شربتِ منه ازددتِ عطشًا، وابتلعتكِ دوَّامته الدنيئة. وَهمٌ مُتقن، هدفه أن يواصل وجوده فقط، مُتغذيًا علينا، على طاقة الحياة فيكِ وفي جميع سكَّان هذا الكتاب».

تقول ذات، لصديقها الذئب: «لماذا لا تجرّب متعنا؟ ما الذي تخشاه؟ أتخاف أن تتذكّر مذاقَ الشهوة؟ أنا علَّمتُ صغارَ الفيلة مبادئ اللذة، ضاجعت الرعاة وخرافهم، اضطجعتُ للفهد ولم أترك اللبؤة في حالها،

حتى الزرافة العانس عرفت معي هِزة النشوة لأوَّل مرة. ولن أحكي لك ما جرى لي مع القــردة حتَّى لا تهلك خجلًا. الكتاب صفحاته لا تنتهي، والماء المالح يرضيني، فلا أريد أن أشبع أو أرتوي مِن هذا كله. فتحتَ عينيَّ على الدنيا وحلاوتها وتفرّ الآن منها وتحضّني على الفضيلة. أنا موافقة، سآتي معــكَ إلى كهفك الرطب، شرطَ أن تدخــلَ أنتَ أيضًا إلى كهفي الرطب. وأرجو ألَّا تحدّثني مرةً أخرى عن فتى الكشّافة ذلك، فقد نبذتُ الأوهام والخرافات مِن زَمان وخلاص».

لا يقول هِرمس شيئًا، يعرف كيف ينتظر.

لا يقول هِرمس شـيئًا، لا يريــدُ أن يُقنعَ أحدًا بـشيء، ولا أن يَفرض وجوده على أي نَفْس.

لا يقــول هِرمس إنه يملك الوقت كلّه للانتظار، ولا تضجره الحكاية مهما تكررتْ، إذ ينتبه كل مرّة لجزئياتٍ صغيرةٍ لم يكتشفها في المرة السابقة. نظرة عين، نسـمة هواء، توقيع رسَّــام الحكاية في ركن إحدى صفحاتها، باســمه الحقيقي، مُتكورًا على نفسه كأنه يتخفَّى في صورة زهرةٍ تبدو مثل سائر الزهور.

اسْتيأسَ الذئب، وقالَ: لا بدَّ لي مِن حيلةٍ غير الكلام الجميل.

اسْــتيأسَ الذئب النباتيّ الصالح مِن أمر ذات، ورَدَّد لها، كأنما لنفســه:

«لا فائدة من الحديث. قلتُ لكِ أن تتذوّقي لا أن تنهشي وتلتهمي. الـحُفرة المفتوحــة في جوفكِ لن يملأها كل ما في الوجود. لا ترتعبي من خوائها، فهذا الخواء طيّب، اسمحي له أن يكون، مِن غيره لن يمر النور والهواء إلى صدرك، مِن غيره لن يتنزّل عاشقك، رسول المحبة، مِن خفائه إلى قلبكِ»، ثمَّ انتبه فجأة إلى أنه عاد مِن جديد للكلام الجميل العاجز.

اسْـتيأسَ الذئب واستسـلمَ وأبدى أن يفعلَ لها ما تشاء لكي تعود إلى الطريق القديم، الطريق المرسوم، طريق الحكاية الأصلية، ولو كان الثمن أن يبدأ كلُّ شيءٍ مِن جديد. فقالت له: «اقتل جدتي وأنا أتوب على يديكَ يـا عم. تذكّر معدنك الأصيل والتهمهـا. لا يزال المفترس القديم يربض داخلك، أيقظة ولو مرةً واحدةً مِن أجلي، مرة واحدة أخيرة وبعدها أعود تلك البنت البريئة، وسأحلم معكَ بفتى الكشّافة ذلك إلى ما لا نهاية».

كانت الجدة تنتظر، لا يُقلقها شيء.

كانت الجدة تنتظر، وتعرف أن ذات لا بدَّ آتية في نهاية الأمر.

كانــت الجدة تنتظر وتتجوَّل بين قنــوات التليفزيون، وهي راقدة على فراشــها، عسى أن تعثر على مسابقةٍ كونية جديدة تعيد لها شبابها الضائع. في كل ساعةٍ تتصل، في كل ساعةٍ ترسل الرسائل، في كل ساعةٍ أملٌ كاذب جديد. طـرق الذئبُ بابها، فأمرته بالدخول وهي تحسـبه حفيدتها ذات،

وما إن رأته حتَّى أدركت أنَّها بلغتْ نهاية هذه الدَّورة مِن وجودها. اطلّعت الحفيدة الملعونة أخيرًا على السِّر وأرسلت لها ملاك الموت.

ركعَ الذئبُ عند حافة الفراش.

ركـع الذئبُ عنـد حافة الفـراش، وأغمض عينيه وعقـد يديه حول صدره.

ركع الذئبُ الموشـك على ارتكاب آخر خطايـاه، واغرورقت عيناه، وشرعَ يصلّي مرتجلًا: «الحياة تأكل نفسها، يا فَتَانا الخفي، أنت تعرف كلَّ شيء، هكـذا أرادَ كاتب الحكاية وأنتَ أدرى به منّا، الحياة تأكل نفســها، ويعـرف كلُّ كائـنٍ حي أنّ عليه أن يقتل ليعيش، لا بـدَّ من أضحية، بدَمِ الأحياء سُطرت هذه الحكاية مِن قديم الأزل، وبالدم تتجدد، وليس لنا في ذلك حيلة ولا حول ولا قوة، ولا سبيل لتجنّب القتل دائمًا أبدًا، واقتلاع أصغر عُشـب يدفع الكونَ كله للارتجاف. هذه هي الحياة، كلبة مسعورة تتغـذى على جِرائها ثم تلدهم مِن جديد، وهكذا بلا رجاء في خلاص أو نهاية قريبة».

ثُمَّ أتت ذات، تلعب دور البريئة.

ثُـمَّ أتت ذات، وقد أنهى الذئب صلاته أخـيرًا، وابتلعَ الجدة على مرةٍ واحدة، فلم يُسِل لها دمًا ولم يَخدش لها إصبعًا.

ثُمَّ أتت ذات، في هيئتها المعهودة القديمة، بالرداء الأحمر القديم وبراءة الأطفال وكل شيء كما كان في الصفحة الأولى من الكتاب. كتمتْ ضحكتها عند رؤية الذئب في ثياب جدتها، وراحت تتغنَّج وتتقصَّع من حول الفراش، ثم اقتربتْ تمس بأناملها جسده المشعر في قميص نوم الجدة، وتسأله بنبرة مغوية: «لماذا أذناكِ كبيرتانِ هكذا يا جدتي؟ لماذا عيناكِ كبيرتان هكذا يا جدتي؟ لماذا مِنخاراك كبيران هكذا يا جدتي؟ لماذا أسنانك كبيرة هكذا يا جدتي؟».

أجاب الذئب: «هكذا أفضل لكي أسمعَ الصمت، هكذا أفضل لكي أرى الباطن، هكذا أفضل لكي أتنّفس الحَق، هكذا أفضل لكي أمزّق شهوات نفسي».

أجاب الذئب: «أحيانًا، يا بُنَيتي، أتمنَّى لو أستطيع التهام العالَم كله داخلي، وأعرف أنني لا أستطيع، فلا أحد يستطيع. الحياة وحدها تستطيع، تلتهم ذاتها بذاتها ليلًا ونهارًا، هكذا تجدّد دمها، وتكّرر حكايتنا البائسة هذه إلى ما لا نهاية. ورغم ذلك، فكأنَّ حيوانًا حبيسًا في داخلي، ما زال توَّاقًا لأن يسمع ويرى ويشم ويتذوّق ويلمس. عقلي يعرف أن ما تجنيه الحواس مِن ثمار فاسدة كلها ظلال الوهم في حديقة حلم الظهيرة، ورغم هذا يبقى الوهم بديًعا وآسرًا ومغويًا، مثلكِ تمامًا، مثل صبيةٍ تتفحَّش ملفوفة في عباءةٍ مِن قطيفة حمراء، ويطيبُ لي أن أبتلعها على مرةٍ واحدة».

وابتلعها الذئب، على مرةٍ واحدة، دونَ أن يُسيلَ لها دمًا أو يخدش لها إصبعًا.

وابتلعها الذئب، فأحسَّ بأحجارٍ ترزح في جوفه، لم تكن أحجار الحقيقة وبلوغ الحكمة، بل كانت الجدة وحفيدتها، لكنَّ تخمته واختناقه ثمن بخس لإسدال الستار.

وابتلعها الذئب فالتقت بجدتّها مِن جديد، ولم يدر بينهما أي حوار في عتمة جوفه، تجنّبت كلٌّ منهما الأخرى، ولبثتا هناك في انتظار حارس الغابة.

الحكاية الرسمية لم يعد يصدّقها أحد، لكنَّ الرجل الأبيض لا يزال يرويها ويكررها باستماتةٍ وتزمُّت، خشية أن تُنسَى ويضيع منه دور البطولة.

الحكاية الرسمية وصلتْ إلينا عبرَ حارس الغابة، وفي يده بَلطة أو بندقية أو سلاحٌ ما، وهو أوَّل مِن ارتابَ في الأمر وفتحَ كوخ الجدة ورأى الذئب نائمًا متخمًا، فبقرَ بطنه وأخرج الجدة وذات الرداء سالمتين.

في بعض نسخها، يكون هذا الرجل هو والدُ ذات الرداء نفسها، ولا نعرفُ كيف عرفَ بالأمر أو أين كان طوال كل هذا الوقت.

في بعض نسخها أيضًا، لا يموت الذئب ويُرمى في بئرٍ وحيدًا بانتظار هلاكه المحتوم، أو ربما بانتظار إعادة الكرَّة من جَديد. بينما يجلسُ الرجل

المخلّص بعـد ذلك مع الجدة والحفيدة، فيأكلون ويشربون ويسـتمتعون وينسجون الحكاية التي ستعيش ألف عام.

كلُّ شيءٍ يتكرّر، مع كل نسخةٍ غير أمينةٍ مِن الحكاية.

كلُّ شيءٍ يتكرّر، غير أن هِرمس لا يقول شـيئًا، فهو يعرف أنَّ التكرار مجرد خدعة لطمأنة الكاتبين والقارئين، وأن كل شيء يتغيَّر مهما غفلَ عن ذلك الغافلون.

كلُّ شيءٍ يتكـرر، وفتـى الكشَّـافة لا ييـأس أبـدًا، فمـع كل صبـاحٍ سيأخذ عدّته ويذهب إلى شرفة ذات الرداء، وفي حلمها قد تسأله: ألا تَيأس أبدًا؟ وفي حلمها لن يجيبها بما يعرف: إذا يئسَ الحالِمُ تنقضي الدُّنيا ويتبدَّد المحلوم.

سرّ البستاني والأميرة

كأنها تُولَد الآن، هكذا، أميرةً شـابةً فاتنـة، تدنو إليها قطوفُ الدُّنيا ولو في غير أوانها بمجرّد أن تحلم بها، وتحيط بقصرها حديقةٌ عجيبة، ولا يُحيِّر الأميرةَ شيء كما تُحيّرها تلك الحديقة، منذ أن وَعت على الدنيا والحديقة كما هي، رغم تبدّل أثوابها بتقلّب الأيام والمواسـم، يظل كل شيء في موضعه الصحيح، كل شيء منسجم في توازن مرهف مع سائر ما حوله، كل شجرة وكل نبتة، كل حوض زهور وكل مرج عُشب، بل كل فراشة وكل نحلة، ولا يحـيّر الأميرة في الوجود كله شيء كما تحيّرهـا حديقة قصرها، منذ أن وَعت على الدنيا وهي تتساءل، مَن ذا الذي يجز عُشبها مثلًا حتَّى يستوي مهادًا متسـقًا؟ ثُمَّ، مَن ذا الذي يسـقي ويُقلّم ويرعى ويقدّم محبته وعرقه وفنونه السـاحرة؟ لا إجابة، وهي تتسـاءل، لكن لا تسـمح لها كبرياؤها أن تسـأل الآخرين مِن حولها، وظلَّت تتصرَّف كعادتهـا، وكأنها مولودة الآن، هكذا، أميرة شابة فاتنة، وتعرفُ كل شيء عن كل شيء، ومع ذلك يتناهى إلى سمعها كلام متناثر وغير محدد عن بستاني ما، تختلفُ في أوصافه الأقوال، تسمع ولا ترى، تسمع وتتخيَّل، وتنتظر أن تراه بعينيها ذات يوم،

ولا تـرى كل يـوم إلَّا صنعة يديه، وتأكل من ثمار بسـاتينه، وتتفيأ ظلالَ غرسـه، ولا تراه في أي يوم، ويضرُم هذا في نفسـها حنقًـا مريرًا، كأنَّها لا تملـكُ هذه الدنيا بين يديها الناعمتين، لذلك، تتجرأ أحيانًا على أن تسـب وتلعن، في سرّها على الأقل، بل أن تسـخر من حكاية البسـتاني تلك، ثم تشـعر بشيء من الندم كأنها أسـاءت لأبيها الملك أو أمها الملكة، وأحيانًا تحدثه وتعده بأشـياء حلـوة إذا ظهر لها ذات يوم، بينما تـأكل من ثماره أو تقطـف من زهوره، ثم تعود لغيظها من غيابه ودلاله فتسـب وتلعن، في سرّها على الأقل، بل تتوعده بأشـياء غير حلوة إذا انكشف لها أمره ذات يوم، حتَّى صار البسـتاني يزورها في أحلامها بين الحين والآخر، على أكثر من صورة، فلم تستطع أن تمسكه في أكثر من حلمٍ واحد على صورة واحدة، كان يظهر على هيئات وصفات عديدة، بل إنه كان يتحوَّل في الحلم الواحد من صورة إلى صورة، كأنّه يتسـلَّى بلُعبة التخفّـي والتنكّر، وتكبرُ الأميرةُ بـين نومها ويقظتها، ولا تراه، تسـمع عنه وتطعم ثـماره وتتزين بأزهاره وترى صـوره العديدة بين نومها ويقظتها وتكـبر بين تلك الصور، فمرةً تراه شـابًّا أسمر عفيًّا، بشعرٍ لامع السـواد، تتندَّى عضلات بدنه بالعَرق وهو يعزق الأرض أو يطلع النخل، ومرةً تراه شيخًا طيبًا، بجلبابٍ أبيض واسع وطاقية خضراء، افترشت وجهه التجاعيد وثبتت عليه ابتسامة رِضى وعرفان، ينحني ويمس الوردَ بحنانٍ كأنه يخشى على الشوك من أذى أصابعه الخشـنة، ومرة تراه امرأة سوداء ولود، ينبض جسـمها الفائر بدم الحياة،

ومرة طفلًا أشـقر لعوبًا يسـتغرق في تنسـيق الحديثة كأنه يلوّن ويزخرف في كراسـة الرسم، ومرة شـاعرًا كهلًا حزينًا يكتب أبياته فتتجسّد حقائق في عتمة السَّحر، ومرة ومرة ومرة، حتَّى يدور رأسها ويُجهد خيالها، وتتمنى لو تستولي عليها صورةٌ واحدة فقط من بين تلك الصور، بلا جدوى، فدائمًا تتبدَّد الصور ودائمًا يبقى السؤال، وتبقى الحديقة، سؤالها حديقة وحديقتها سؤال، بين نومها ويقظتها، وأمام مرآتها، شابةً فاتنة أو كهلة لا تزال فاتنة، تردَّد بملاطفة وتودّد، «مَن أنتَ أيها البستاني؟ ما صورتك يا حبيب؟ إن لم تكـن لك صورة فهل لك وجود؟ اظهر وبان عليك الأمان، ولك عليَّ ما تشاء»، بلا جدوى، فلا يظهر البستاني ولا يبين، وتكبر الأميرة بين سؤالها وحديقتها، ويكبر معها السؤال، وتكبر معها الحديقة، إذ تعرف أنَّ ما تقع عليه عيناها من حديقتها ليس إلَّا جزءًا صغيرًا من ميدان عمل البسـتاني المجهول، فمِن وراء أحواض الزهور والخمائل تمتد بساتين الفاكهة، ومن ورائهـما معًا الحقول ذات الغلال والخـضروات، وبعدئذٍ هنالك المراعي المترامية للدواب ولا يعرف أحد لذلك كله نهاية، ولعلّ عمله أيضًا يصل حتَّى أعماق الغابة والأدغال التي لا يجرؤ إنسـان على اقتحامها ومواجهة خفاياها ووحوشـها، فأين ينتهـي كل ذلك؟ أو هل لكل ذلك أي نهاية؟ وهل يعلم هو نفسـه، البسـتاني، حدودًا لميدان عمله؟ وكيف يحيطُ بكل ذلـك عِلمًا ورعايـة؟ في عينَي الأميرة، يتضـاءلُ كلُّ مُلك وكُل عرشٍ إذا ما قورنَ بملكوت البستاني المجهول، لا، لم تعد قادرة على الصبر والانتظار

والتخيُّل، ألا يوجد ما يُلهيها عنه قليلًا أو كثيرًا؟ لا بدَّ أن تكفَّ عن وَلعها الساذج بشيءٍ لا وجود له، قالت لنفسها مثل ذلك، وقالت لنفسها أيضًا أنا شببتُ الآن، ولم أعد في رعاية أحد، يصطف أبناءُ الملوك أمامي لأتخيَّر من بينهم شريكًا، ويعينني على تدبير أمور الملك وزيري المخلص العجوز، قالت لنفسها مثل ذلك، وقالت أيضًا لا بدَّ لي إذنْ أن أودّع أوهام الصِّبا وخيالات الشباب، ولا بدَّ أن أنسى هذه الحديقة، قليلًا أو كثيرًا، ومبدعها الغامض، فصارت تتجنَّب الحديقة، وتسلَّت عن التفكير فيها وفي البستاني، بنفسها وزينتها الشخصية وأثوابها وحُليها، وحفلات استقبال المتوددين والخطَّاب وتلقي هداياهم، والاستماع إلى رسائلهم وقصائد تغزلهم بها وأخبار البلاد البعيدة، فانشغلت، ولم يعد يزورها البستاني في أحلامها على أي صورة، لكنها، بين الحين والآخر، تنتبهُ فجأةً إلى زهرةٍ بديعة الألوان وكاملة الحُسن تميل مِن وعاءٍ بللوري على مائدة العَشاء أمامها، فتتذكَّر شيئًا أو كلمةً أو نغمة، لا يزال يطاردها، لا يزال يريد أن يواصل اللعب، تعرف وتتجاهل وتنكر وتتهرَّب، ثمَّ تنتبه فجأةً إلى صيحة طيرٍ تتناهي إليها في داخل دفء الصالون المشبع بالعطور ودخان التبغ في سهرةٍ حميمة مع رجال المملكة، تنكر وتتهرَّب وترفض أن تتذكَّر شيئًا، ثُمَّ فراشةٌ وليدة تقتحمُ عليها حمَّامها فترى فيها الرسالة ذاتها، يفيضُ صبرها، تنهضُ عارية وصارخة في الفراغ، «ابتعد عني، لا أريدُ منك شيئًا، أنا سعيدة، بل إني أسعد إنسانة على وجه الأرض، ولتختفِ كَما تشاء فلَم أعد أنتظرك أو أبحث

عنك، يا عم»، يضللها السّخط وتستعين بوزيرِها العجوز، المعروف بخُبثه مِن قديم الزمان، تُطلعه على محنتها، فيوعز لها، وسط الشراب والسَّمر، أن تدمّر صُنع البستاني إن لم تكن قادرة على النيل منه، فتفعل، تتسلَّى كل يوم، تأمر بقطع شجرةٍ جديدة، حتَّى إنَّها تمدَّ يديها وتنزع بعض الزهور وتدهسها، فتشعر بلذةٍ غريبة، لذة جديدة، لذة التحدّي وكأنها تنتفخ، وكأنها تتمدّد، وكأنها تكبر الآن فقط، ثمَّ تنقطعُ رسائله، وتُحتضر الحديقة، وتصطف جذوع النخل المقطوع على الأرض الجرداء مثل التوابيت، بعد أسابيع تختفي الطيور والفراشات، حتَّى الغربان لم يعد يُسمَع لها صوت، وتتعالى ضحكاتها في سهرات الطَّرب والنشوة، تعقدها بالخارج، وسط الخراب والحُطام، تشرب الخمر وتضحك وتبكي، وتحكي لندمائها عن بستاني لا يستطيع أن يراه أحد، لكنه ظلَّ يلاحق أحلامها وخيالها وهي شابةٌ ساذجة وجميلة، لكنها الآن كهلة وحُرّة مِن الأوهام، بلا شريكٍ على العَرش، ولا دخيلٍ على أحلامها، يجاورنها ويسترضونها ويسخرون معها من ذلك البستاني، يتنافسون في ابتكار ألقابٍ مضحكة له، البستاني الخفي، الجنايني الخجول، المزارع الشفَّاف، وهكذا تتبدّد الأيام والليالي، حتَّى تظن أنها شُفيتْ واستراحت، عندئذٍ يداهمها المرض، فتلزم الفراش وتصهرها الحمَّى ساعاتٍ متواصلة، ترى خلالها البستاني مِن جديد، في جميع صوره السابقة، يضع يده الباردة على جبينها ويتلو كلماتٍ غير واضحة، تسأله ملهوفة: «لماذا تركتني؟»، فيبتسم ويتساءل متعجبًا: «أنا؟ أبدًا».

لكنَّ العتاب يهدرُ وقتَ المحبين، ثمَّ تبرأ من الحمَّى بعد يومٍ أو بضع يوم، ثـمَّ تنهضُ ذات فجر صافية النفس، تلقي عـلى كتفيها عباءة دافئة وتطل مِن شرفتها مع بشائر الصباح، فلا ترى إلَّا الخراب، المزبلة، الحطام والقبح والعفن والمرض، فتبكي، هذه المرة بلا شراب، وتسـمعه كأنما يهمس لها، الآن ترين، الآن ترين، لم تُضيّع الوقت، فالعتابُ يهدرُ وقت المحبين، ترتدي ثياب العَمل وتنزل إلى الحديقة، عليها أن تبدأ كل شيءٍ مِن جديد، ثمَّ تفتح الأبواب لكل مَن يريد أن يشاركها العمل، فيأتي شيخٌ، بجلبابٍ أبيض وطاقية خضراء، ثم شـابٌّ أسمر عفي، بشعر لامع السـواد، ثم امرأة سوداء مع أطفالها الكثيرين، وسرعان ما أتى الشاعر وطفله الأشقر، وسواهم كثيرون، ويمتلئ القصر وتمتلئ الحديقة، بالحركة وبالخلق، باللغات والصداقات، وتهتز الأرض وتربو، وتنهض الأشجار واقفة وكأنها تُبعث من بعد موتها، وتبتسـم الـخُضرة هنا وهناك على اسـتحياء، قبل أن تستجمع شجاعتها وتكسـو كل بقعةٍ جرداء، ويبتعد الوزيـر غاضبًا، كأنه يُهَان، ويُراقب من بعيد، كأنه ينتظر، ثمَّ يسمعون صوت أوَّل العصافير العائدة، ثمَّ سرب، ثمَّ أسراب، ثمَّ يشدُّ كل كائنٍ حليفه أو خَصمه بحبلٍ خفي، والأميرة تعمل، من طلوع الشـمس إلى غروبها، ترتدي ثياب الناس وتأكل أكلهم وتتعلّم لغاتهم، تداوي الجحش الجريح وتجز فراء الخروف وتجمع بيض الدجاج، ولم تعد تذكرُ الكثير مِن حياتها الأولى، حتَّى البسـتاني لا تتذكره إلَّا لِمامًا، فتبتسم وتغمز له، لم يعد عليها أن تنتظره، لكنه إذا شاء أن يعود ذات يوم،

سيكون سهلًا عليه أن يتعرّف المكان، سيجده كما غادره أوَّل مرة، حتَّى لو كانت هي آنذاك قد نزلت إلى قبرها، فلم تعد شـابة، ولا كهلة، هي الآن عجوزٌ قوية، شـيخوختها عذبة كأنها نسـمة صيـف، وإذ تقف الآن أمام مرآتها من جديد، فكأنها ترى فيها صورًا عديدة لا صورة واحدة، ثمَّ يهيأ لها للحظة أن تراه يطل عليها، من موضعه المجهول، يبتسـم ويغمز، كان للبستاني هذه المرة وجه أميرة شابة وفاتنة، يجري في وجهها ماء الحياة، بلا تجاعيد أو شـحوب، ولا يحيرها شيء في هذا الوجود، بعد أن كشـفتْ لها حديقتها عن ألطف أسرارها.

حديث الجندي الصفيح

أشـعل صانعُ الدُّمى قنديله، قبلَ أن تغيب الشـمس تمامًا، رغمَ أنَّ قبو منزله الذي يتخذه ورشـةً لصناعته، لم يكن ينتفع بضوء النهار إلا قليلًا، فهو مساءٌ دائم، وربما كان هذا من الأفضل له، ولتلك الدُّمى التي تولد في شبه عتمة، قبل أن يكتمل نموها وتخرج إلى أنوار العالم الضارية، لتُعرض عـلى أرفف وفي واجهات متاجر لعب الأطفـال، فتبقى هناك زمنًا يطول أو يقصر، قبل أن تبدأ رحلة حياتها الحقيقية مع أسيادها الصغار، وتعيش معهم زمنًا يطول أو يقصر، إلى أن تنتهي رحلتها وتتفكك وتتهشم، قطعة بعد أخرى. لكنَّ تلـك خواطر حزينة، لا تلائم لحظته هذه، حيث انتهى أخيرًا مـن صُنعَ كتيبة جديدة مـن جنود الصفيح، وتراصَّـت أمامه مِثل جيش صغيرٍ جميل.

الآن يمكنـه أن يُشـعل غليونـه وأن يهنأ باسـتراحةٍ قصـيرة، قبل أن يصعد إلى شـقَّته ويتناول عشـاءه مـع زوجته. صباح اليوم التالي سـوف يأخذ هؤلاء الجنود اللامعين إلى مَتجر الدُّمى، ويتسـلَّم ثمنهم ويشـتري لوازم البيت وبعض الأخشاب والخردة والطلاء وما يحتاج إليه لصناعته.

نفـخَ دخانَ غليونه في وجوههم النظيفة الباسـمة، وجفلَ مأخوذًا عندما سـمعَ بعضهم يَعطس. لم يكن يقصد أن يصنـعَ دمًى حيَّة، لكنّه سُرَّ لهذه المفاجأة الصغيرة، ولم يشغل باله إن كانت هذه هي المرَّة الأولى والأخيرة، أم أنَّها معجزة تتكرّر بين حينٍ وآخر في عتمة ورشـته. رأى بعض الجنودَ يتحرَّكون في قلق، وسرعانَ ما يستعيدون وضعهم المشدود ويعدلّون بنادقهم المستندة على أكتافهم. شعرَ الصانعُ أنَّ مِن واجبه عليهم الآن أن يمنحهم فكرةً عمَّا ينتظرهم ففعلَ، كأنَّه يحدّث نفسـه، كأنَّـه يودُّع طفله، كأنَّه يقرأ مِن كتابٍ مفتوح. ثُمَّ سألهم:

«والآن، وقبلَ أن نفترق في الصباح وتخرجوا إلى العالَم، هل يودُّ أحدكم أن يقول شيئًا؟».

لم يكـن ينتظر منهم رَدًّا، ومع ذلك فَلَم يُفاجأ كثيرًا عندما سـمعَ أحدَ الجنود يتنحنح ويغمغم بشيءٍ ما، كأنَّه يكتشف صوته، يكتشفُ الكلمات وقدرته على نَظمها معًا في جملٍ تامّة ذات معنى. ولم يفهم الصانع ماذا قال، فسـعلَ مواريًا دَهشـته، وغافلًا عن التحوّل العجيب الذي أحاط بالقبو فكأنَّه صارَ حيزًا غامضًا خارج المكان والزمان:

«تكلَّم، ولا تخشَ شيئًا».

«أرجـو أن تغفـر لي جـرأتي يـا سـيدي، فأنـت صانعنـا ووليُّ أمرنا، لكنني...».

هذه لحظةٌ جليلةٌ، فالجندي الوحيد الذي تَجرَّأ على الكلام كان هو آخر قطعــةٍ يصنعهــا، ولم يكن الصفيح الذي صهره مِــن المَغرفة القديمة كافيًا ليكمله، فتركه بساقٍ واحدة فقط. كانت لحظةً جليلةً للجندي أيضًا، فتلك هي المرة الأولى التي يســمعُ فيها صوته، ويســتخدمُ فيها الكلمات، واقفًا أمامَ صانعه، مُغالبًا رَهبته. راق للصانع العجوز ما ســمعه، «أنتَ صانعنا ووليُّ أمرنا...»، لو يســمع الآخرون ذلك، لو تسمعه زوجته على الأقل. مِن المؤســف أنَّه الوحيد الذي يشهد هذه المعجزة، ولعلَّها لن تتكرّر بعد ذلك أبدًا. كان على الصانع أن يضعَ هواجســه الشخصية جانبًا، ويرتقي لجلال اللحظة.

«قلتُ لكَ تكلَّم ولا تخشَ شيئًا، أحبُّ أن أسمعكَ حقًّا».

«إننا، يا ســيّدي الصانع، أبناء كتيبة واحدة من خمسة وعشرين جنديًّا صفيحيًّا صغيرًا، أتممتَ صُنعنا -ولك الشُكر- في هذا اليوم نفسه، فجعلتنا متماثلين في كل شيء. اللون والطول والهيئة، السلاح والزي ولون الأعين والشَّعر...، لكنّي... أقصد... أنني...».

فكَّر الصانع أنَّ الأمر يبدو، في الظاهر فقط، كأنه نوعٌ مِن الاستنساخ، وصَــبّ القوالب وإعادة إنتاج النموذج نفســه في كل مــرَّة. هذا ما يبدو، هذا ما يشكو مِنه الجندي ناقص الساق، لكنَّ الصانع وحده يعرف، الآن فقــط، أنَّه ما مِن قطعتين متطابقتين تمامًــا. حَتَّى لو حرصَ هو على ذلك،

لزوم إتقان الصَّنعة، وهو لا يحرص، فلا بدَّ أن يُفلتَ مِن بين يديه شيءٌ ما، شيءٌ أدق مِن أن تلحظه النظرة العابرة، النظرة المعتادة على التكرار والتناسخ، شيءٌ قادر، على ضآلته، أن يبدِّل مسارَ القطعة وتاريخها ومستقبلها. أمَّا الاختلافات الواضحة الظاهرة، والتي تراها كل عين، مهما بلغتْ مِن الخمول وقِصر النظر، فهي قليلة، مِثل حالة هذه القطعة التي تخاطبه الآن، التي تنقصها ساق، بسبب نفاد الصفيح، ونفاد صبره وشدّة احتياجه للنقود مع اقتراب موسم الأعياد. كان الصانعُ، مِن جديد، يقرأُ مِن كتابٍ مفتوح، بلا صوت، لكنه انتبه للجندي يتطلَّع نحوه مُتلعثمًا، فشجَّعه مبتسمًا على مواصلة الحديث، وهو ينفض غليونه على المائدة بصوتِ قرقعة ارتجَّ لها القبو وارتعدت أجساد الجنود حديثي الولادة.

«لكنّي الوحيد مِن بين رفاقي الذي لم يكتمل صُنعه، كَما هو واضح، فأنا بساقٍ واحدة. لذا وددتُ قبلَ خروجنا إلى العالَم، إذا كان لي هذا الحق طبعًا، أن أسألَ إن كان لهذا علةٌ ما؟».

وضعَ الصانعُ غليونه، وأخذَ يَفركُ جبينه وهو ينعمُ النظرَ نحو الجندي الصفيح ذي الساق الوحيدة. اتخذ الصانعُ الآن ملامح فيلسوفٍ يواجه سؤالًا مثيرًا في قضيةٍ معقّدة، أو شاعرٍ يطاردُ صورةً لا يجد الصيغة الجديرة بها. من ناحية أخرى، شعرَ بأنَّ عليه ألَّا يتساهل أبدًا في إجابة سؤال هذا الجندي المُميّز، وبأنَّ عليه أن يُعوّضه -بطريقة ما- عن إعاقته. لذلك فقد

تمهَّل، وحشى رأس غليونه بتبغٍ جديد، ثمَّ أشعله، وإذ يطفئ عودَ الثِّقاب بحركةٍ سريعة مألوفة مِن يده وجدَ الحل، عثرَ الفيلسوف على إجابة سؤاله؛ «بينما نمضي على الطريق نقابل معنى حكايتنا ونتعرَّف على وجوهنا»، وفي اللحظة ذاتها، اصطادَ الشاعرُ سطره؛ «اسفح دمَ القلب على أعتاب الحبيب، وردةً رخيصة لا ترجو جزاءً». وجدَ الصانعُ الحلَّ، سوف يَهبه حكايةً تُميّزه عن رفاقه المكتملين، إذا ما صَدَّقها ثُمَّ عاشـها في حياته الدُّنيا سوف يفوز ويهنأ رغم كل عَناء، أمَّا إذا كذَّبها ونسيها بعدَ أن ينزل إلى ضجة السوق في موسم العيد، فعلى الأقل ستمنحه الحكاية عزاءً مؤقتًا هُنا لليلةٍ واحدة.

«اسمع يا بُني، العِلّة الظاهرة هي نفاد الصفيح اللازم عند صَب قالبك، لكنَّها مجرّد مصادفة، وهِي تسـمية أخرى لما يسميه البعض القَدَر. وكنتُ مُخيّرًا بـين أن ألغي فُرصتكَ في الوجود تمامًـا أو أن أصنعكَ منقوصًا، فما رأيكَ أنت؟ ألا تحب وجودكَ رغم نقصانك؟».

«رُبمَّا فيما بعد، يُتاح لي الوقت اللازم لأن أحب وأكره وجودي ونقصاني، لكن الآن أودُّ انتهاز فرصة وقوفي بين يديكَ لأفهمَ، لأعرفَ مغزى اختلافي عـن الآخرين، نتيجةً لما يسـمَّى المصادفة أو القَـدَر. وما دامتْ هناك علة ظاهـرة فلا بدَّ أنَّ هناك أيضًا علةٌ خَفية. تلك العِلة هي مُرادي ومقصدي الآن».

حدَّث الصانعُ نَفسه بصوت خفيض: «إنّه مختلفٌ حقًّا»، لكنَّ جنديًّا مكتملَ

الصُّنع كان يتتبعَ حديثهما مِن بدايته، وسمعَ ما همسَ به الصانع، فاستجمعَ شجاعته واكتشف حدود وقاحته وهو يهمس لرفاقه في الصف:

«طبعًا، هو مختلف. فهو بساقٍ واحدة، وسوف يعيشُ أعرج. إنَّه ذو عاهة منذ الآن، فماذا لو خاضَ حربًا ذات يوم؟».

وجَّه الصانع نظرةً قاسية نحو المتبجح، فأسكته. والتفتَ مِن جديد نحو ابنه المميز، وسأله:

«هل ساءك ما قاله زميلك هذا؟».

«لم يقل إلَّا الحق، فأنا لم أَخُضْ حربًا بَعْد لأفقدَ ساقًا».

«يُولد البعض أبطالًا بلا حروب».

«ويُولد البعض معاقين بلا حروب».

كانَ عبيرُ أسئلته يتطاير مع دخان التبغ، ويثيرُ الصانع ويستفز الفيلسوف ويُنعش الشاعر.

«بين البطولة والإعاقة شعرةٌ رفيعة، الفرق بينهما يصنعه صاحب الحكاية بينما يعيشها. فبينما نمضي على الطريق نقابلُ معنى حكايتنا ونتعرَّف على وجوهنا».

عبسَ الفيلسوف إذ سُرقت فكرته هكذا بلا حياء أو استئذان، فغادرَ

المكان حانقًا. ثُمَّ تنحنحَ الجندي الكامِل الفخور بنفسه، متأهبًا للتدخّل في الحديث:

«هل معنى هذا أننا سنكون بلا حكاية، نحنُ مكتملو النمو الجديرون بالبطولة والمجد؟»

فأجابه الصانع مِن غير تردّد، مؤجلًا نهاية يوم عمله لأقصى حدٍّ مُمكن:

«قد تتشابه حكاياتكم كَمَا تتشابهون تمامًا، تعيشون حياةً طيّبة، تحبون وتكرهون، تقتلون وتربما تُقتلون، لكنَّ أحدًا مِنكم لن يتساءل عن عِلةٍ خفية وراء وجوده أو نقصانه».

«لا بأس عندي في هذا، ما دامت الحياة طَيبة وحافلة، فلا حاجةَ إلى الأسئلة ووَجع الدماغ».

ساد بعض الصمت، وكادَ أن يختفي صفُّ الجنود مِن وراء دخان التبغ. لكنَّ صوت الجندي الصفيح عادَ مِن جديد، متردّدًا:

«أفهمُ من هذا أنَّه ستكون لي حكاية مختلفة عن الحكايات المتشابهة للآخرين. وأنَّ ثمنُ هذا هو عاهتي هذه. ألا تبدو لكَ مقايضة مُجحفة؟ كأنني أقدّم جزءًا مني، سَلفًا، في مقابل ما لا أعلم».

«اسفح دمَ القلب على أعتاب الحبيب، وردةً رخيصة لا ترجو جزاءً».

ابتسم الشاعرُ عند الاستشهاد بقوله، وغادرَ المكانُ راضيًا.

«سيكون لي حبيبٌ إذنْ؟».

«دُميةٌ راقصة، بديعة الـحُسن، هي أيضًا تقفُ على ساقٍ واحدة، وهذا ما سـيربط بينكـما في البداية، وسـوف تمتزج بها في قلب نـيران المدفأة في النهايـة، وما بين البداية والنهاية مغامراتٌ رهيبة وأحداث كثيرة، لا أريدُ أن أكشفها لك».

صمتَ الجندي الصفيح أخيرًا، وبدا كأنه يبتسم ابتسامةً داخلية راضية. في هذا الصمت، سمعَ الصانعُ العجوز دقَّاتٍ ثلاث من أعلى سقف القبو. إنَّه نداء زوجته، فلا بدَّ أنَّها أعدَّت العشاء وتنتظر صعوده الآن. عليه إذنْ أن ينهي يومَ عمله الغريب هذا، وأن يضعَ الجنود الصفيح في صندوق ملائم. كَم كان يودّ أن يتمهل قليلًا، هكذا يدخّن في صمت، ويرنو إلى جنديه المميّز وقد عاد دُميةً خرساءِ مِن جديد. كَم كان يودّ أن يمكثَ قُبالته، لا ليخاطبه أو ليسمعَ منه، بل ليتبادلا النَّظَر فقط، هكذا، إلى ما لا نهاية.

ابتسامة رجل القمامة

نسـتطيعُ أن نتخيَّل أنَّ الحكاية القديمة هي الـجَدّة، وحكايتنا الجديدة هذه هي حفيدتها التي تشـبهها كثيرًا، وتختلفُ عنها قليلًا. ونسـتطيعُ أن نزعم أيضًا أنَّ الجدة تحكي نَفسها لحفيدتها قبلَ النوم، بينما تقاومُ الصغيرة النعاس وتعيد صياغة نَفسها على هَواها. هذه طريقةٌ أخرى للقول إنَّ هذه الحكاية، مِثل أغلب الحكايات، ليستْ أصلية، بل هي نسخة جديدة أتت لكي تتذكَّر جدتّها وتثني عليها وربما تطمع -بطموح الشباب المشروع- أن تملأ بعضًا مِن فراغاتها.

وِفقًا للجدة، في الأصل الهِندي القديم للحكاية، لم تستطع زوجةُ جامع القمامة، لسببٍ ما، النهوض من نومها في وقتٍ مبكّر كعادتها كل يوم، لكي تؤدي واجبها الصباحي شِبه المُقدَّس، وهو إفراغ سلّة مرحاض ملكة البلاد، وهكذا توجَّب على الرجل أن يذهب بنفسـه بدلًا منها، قبل أن يمضي في جمع فضلات بيوت المدينة، فهذا أيضًا كان واجبه الصباحي شِبه المقدَّس، ويبدو أنَّ كل شيءٍ تقريبًا كان مقدَّسًا على زَمن تلك الجدة.

نســتطيع أن نتخيّل، هنا أيضًا، أسبابًا عديدة وراء توعّك امرأة فقيرة، ولعلّــه لم يكن إلّا حَبَلٌ جديد، إذ يبدو أن هذه هي المرة الأولى التي تعجز فيها عن النهوض والتوجّه للقصر. وربما خرج الزوجُ متأففًا، مُوبخًا زوجته بغمغمةٍ غير واضحة. وإذا أمعنّا قليلًا في الخيال لقُلنا إنَّه قد شــعرَ بمجرّد خروجه مِن باب الكوخ بشيءٍ غريب، حتَّى أنَّه توقَّف لحظة مُستغربًا، وَفكَّ سيور البرميل الخشبي الكبير من حول كتفيه وأنزله عن ظهره، وانتصب واقفًا يتطلَّع فيما حوله كأنه يرى لأوَّل مرة الأكواخ المحيطة وشجرة النيم المعمرة، أو الأزذرخت الهندي، أو بقية الأســماء التي لن يعرفها أو يسمع بها صاحبنا هذا أبدًا، فهي بالنسبة لها المرجوسا، صيدلية القرية، وحسب، واقفــةً هنالك منذ أن وعى الدنيا، في الباحة الصغيرة وراء طرف الزقاق، ومن فوق كل هذا سماءٌ رمادية، لم تُوقَد أفرانها بعد.

لا نعــرفُ الكثير، قبل هذه اللحظة، عن الرجل جامع القمامة، وليس هناك ما يُوحي بأنه كان مختلفًا بأي صورة عن أمثاله الآخرين في مثل تلك الحكايات القديمة، الفقراء والبســطاء والمرهقين، ممَّن قد يخامرهم فجأة، ذات صباح، شعورٌ غريبٌ هو أقرب للإحساس بالقَداسة، وإن لم يمتلكوا المفردات اللازمة للتعبير عنه. لكنه ابتســم وتنفس عميقًا بينما يسمعُ قُبرة متوّجــة تزقزق غير بعيد. هذه على الأقل لديه المفردة اللازمة ليعبر عنها، وربمَّا ردَّد لنفســه الاسم همسًــا؛ الوِلوال أو القنبرة أو الترغي، أو أيًّا كان

الاسم المحلّي في تلك البلدة الخرافية التي قد تكون في الهِند حقًّا أو في أي مكانٍ آخر في العالِم، رغم مزاعم الجدة، الحكاية الأصلية.

عندئذٍ، وما إن همسَ بالاسم؛ وِلـوال، حتَّى أحسَّ بوخرةٍ صغيرةٍ في صـدره، وخزة غـير مؤلمة بالمرة، بل حُلوة وطريـة، كأنها عضّة من طفل، لعلّه الطفل نفسـه الذي يتكوّن الآن في رحم امرأته. تذكّر فجأة أغنيةً من أغاني المهد، فأخذ يترنم بما يتذكّر من كلماتها، ويواصل سيره مبتسمًا، نحو القصر الملكي، بينما ينتشر النور مع اتسـاع الأزقة إلى شـوارع وساحات، تحفها حدائق وبساتين. لَعلَّه شعرَ بشيءٍ من الحسد نحو امرأته لأنها تقطع هـذا الطريق، كل يـوم، في نفس الموعـد، بينما يكون هو لا يـزال نائمًا في الكوخ، حتَّى تعود ويتسـلَّم منها البرميل ويستكمل مهام جمع الفضلات من سائر الأكواخ والبيوت.

أخيرًا بلغَ القصر، عرَّف بنفسه وبطبيعة مهمته، فأشار له أحد الحراس إلى ممرٍّ تحت الأرض، ينتهي بقبوٍ صغير يقع أسفل المرحاض الملكي، سارَ فيه وحده إلى أن بلغ بئر المرحاض. لا ندري، أكان من حُسن حَظ صاحبنا أم سوء حظّه، أنَّ الملكة كانت جالسةً هناك، بالأعلى، تقضي حاجتها على ما يبدو، في نفس لحظة وصوله هناك، بالأسـفل. ولا ندري أيضًا إذا كان قد أيقظها هي أيضًا شعورٌ غريب ما، لتنهض في هذا الموعد المبكر للغاية، بالنسبة للمواعيد المتعارف عليها لنوم واستيقاظ الملوك والملكات؟ الجدة،

الحكاية القديمة، تصمتُ، تأدّبًا ووقارًا، عن مثل تلك التفاصيل، ولا تشير بالمرة إلى ما كانت تفعله الملكة في جلوسها هنالك، فلن نعرف أبدًا إن كانت تبول أم تتغوّط أم تجلس ساهمة وحسب، تطلق ريحًا هادئًا وتبتسم لنفسها في نعاس مستريح. إذا نظرنا من الأعلى لرأينا، من فتحة المرحاض، جامع الفضلات يرفع رأسه ويتطلّع، وإذا نظرنا من الأسفل لرأينا، من نفس الفتحة، جزءًا من بدن الملكة. تصمتُ الجدة العجوز عمَّا رآه صاحبنا بالتحديد. تخمّن الحفيدة، هنا، ربما وقع بصره على باطن فخذيها أو إستها أو قطعة صغيرة من عشها الملكي، أو ربما رأى نورًا ورديًّا مشعشعًا غشى عينيه فلم يستطع أن يحدّد كُنه ما يرى. لكن، لا أهمية لكل تلك التفاصيل، في الحقيقة، ما يهم الحكاية، القديمة على الأقل، أنه رأى شيئًا ما كان له أن يراه، ليس لوضاعة منزلته، بل لرقة روحه وخفة قلبه.

هُنا فقط قد يبدو الشيء المختلف في هذا الرجل، فلو كان أي شخصٍ آخر سواه رأى ما رأى لساوره الخجل وأشاح ببصره سريعًا، وربما فزع قليلًا، لأنها الملكة على كل حال، ولو أنه كان ماجنًا ولو قليلًا، لكتم ضحكته، ثم ذهبَ في حال سبيله، وهو يعدّ النوادر التي سيتبادلها مع رفاق سهرته في الباحة تحت شجرة النيم، عمَّا رآه، وكيف سيبالغ في وصف الجلد الشفَّاف إلى حد أنكَ، يا أخي، تستطيع أن ترى عبره اختلاج الدم واللذة في العروق. لكن صاحبنا لم يكن من هذه الأنواع، أو على الأقل هذا ما جري له في

ذلـك اليوم تحديدًا، وإذا اضطررنا لوصف حالـه، ولو بإجمالٍ مُخل، لقلنا إنه تقريبًا فُتنَ، أو هذا ما يبدو من هيئته الذاهلة عن الدنيا، إذ يسير مقوّس الظهر تحت حِمل برميل الفضلات، لا ضاحكًا ولا باسمًا، ومع كل خطوة كان يشـعر أنه برميله يصير أشـد ثقلًا، حتى ولو لم يُضَف إليه أي شيء، كأنّـه يحمل هذه القرية كلها فوق ظهره، لا فضلاتهـا فقط، بل هذا العالمِ كله، لكنه عندما وضع البرميل عن ظهره ليستريح قليلًا، لم يشعر أنه صارَ أخف وزنًا. لم يسـترح فجلس، لم يسترح فنهض ومشى، لم يسترح طوال يومه، وعندما أوغلَ النهار، وأوقدت السـماء أفرانها، انتبه أنه ظلَّ صامتًا وسـاهمًا طوال الوقت، يردّ مُضطرًّا بالإشارة على التحيات والأحاديث، ويتجنب جميع الناس.

خاصمه الكلامُ فجأة، وهـو الميَّال للثرثرة في أغلب الأوقات. ورغم أنَّنا لا نتوقَّع من رجل القمامة أن يكون حليفًا لألعاب الكلام أو أن تكون تحـت يده كنوزٌ من المفردات والمرادفات، كما لاحظنا من قبل مع شـجرة وعصفور، يبقى من المستغرَب، مع هذا، أن ينعقد لسانه نهارًا كاملًا. ومن ناحيتها، فالكلمات ليست من عادتها هي أيضًا أن تغدر، هكذا فجأة، بأي إنسان، مهما كان بسيط الحال، وتخونه وتتخلَّى عنه، إلَّا، ربما، إذا أحسَّتْ هي نفسها، بشيءٍ من العَجز، وتوارت خجلًا أمام شيءٍ لم تجرّبه من قبل، حتَّى تستطيع أن تعبّر عنه، وهي فخورةً بلسانها الطليق. عندئذٍ، قد يصيرُ أيٌّ منّا

بطلًا في حكايةٍ، ولو كان رجل القِمامة، كأنَّ الصمت خَميرة الحكاية.

لم يعـرف ماذا أصابـه، ولم يكن يريد أن يعـرف، أرادَ فقط أن يجلس، صامتًا كما هو، بعيدًا عن الناس. وامتدَّ صمته يومًا بعد يوم. وفقد شهيته، فلم يقرب طعامًا إلَّا لقيمات، ولم يقرب امرأته، حُبلى كانت أو غير حبلي. وبدا كأنه يترصَّد السماء، فلم يكن يتوقف إلَّا قليلًا عن مراقبة أحوالها، هذا أو الإنصات إلى هسيس الأشجار وطنين الحشرات وشقشقة الطيور، من غير أسماء لأيٍّ من هذا كله. كانتْ أصواتها لغةً جديدة قائمة بذاتها، وبدا كأنَّها تفضي بأسرارها له شيئًا فشيئًا، من غير أن يسعى إليها. وهكذا أمضى أغلب وقته خارج البيت، في خلاءٍ على حافة القرية، ودون أن يتعمَّد، وجد نفس يتخذُ جِلسة زهرة اللوتس، الوَضع المألوف للمتأملين مِن فقراء الهنود الرُّهبان والنُسَّـاك وأمثالهم. وأخيرًا اسـتراح، وقد استقامَ ظهره وأرهف السمع وأغمض عينيه.

بدأ الناسُ ينسجون الحكايات، حول جامع الفضلات الجالس منفردًا في الخلاء، وكراماته واتصاله بأهل السـماء وعالَم الغيب. وهكذا اعتبروه قدّيسـهم المَحلي، واتخذوا موضعَ جلوسه مزارًا، ينحنون أمامه ويضعون بعض الهدايا، وعاء أرز باللبن، عقد ورد، عيدان بخور، ورقة فيها اسـم طريح الفـراش أو الجندي الغائب، ثم يمضون بعـد أن تبرّكوا به، وبثوا شـكواهم مِن مغص الأمعاء أو زوجة الابن القاسية أو الموسم الشحيح أو جُباة الضرائب الذين لا يرحمون.

الحكاية الـجَدة، كَمَا تناقلتها الكتب القديمة، تصمت كثيرًا أو تنسى أو تغفل، لكنها تقفز بشجاعة، وبوثبة واحدةٍ مِن فخذ الملكة إلى مقامات الأولياء الصالحين، لكنها رغم ذلك تحب أن تكافئ أحفادها بقطعة حلوى في النهاية. وبعد مرور الأيام والأسابيع والشهور، هكذا في لمح البصر، أو في سطرٍ واحدٍ أو أقل، وبعد أن يكون صيتُ الناسك المبارَك قد ذاع وسرى حتَّى بلغَ القصر الملكي وأهلـه، ثم أذنَي الملكة، التي تتردد طويلًا قبلَ أن تقرّر الذهاب بنفسها لمشاهدة العَبد الصالح الذي تفخر به مملكتها.

لا يجب أن نتردّد نحن طويلًا، مثلها، ولنسعَ خلف موكبها مع بقية أهل القرية. ها نحنُ نراها، كاملةً وليس مزقة من أعضائها الحميمة، محتشمة، في كامل ثيابها الملكية. نراها، تنحني في تواضع، راكعةً أمام القدّيس الشهير، وتناجيه بهمسٍ لن نعرف فحواه أبدًا، فغير مسموح لنا بالاقتراب من جلالتها إلى هذا الحد. هو أيضًا لم يسمعها، صاحبنا، رجل القمامة، الجالس في وضع زهرة اللوتس، رغم أنها دَنت منه بقدر ما يستطيع شخصٌ أرضي من الاقتراب من قدّيس متصل بالسماء. لم يفتح عينيه من الأصل، ولم يقطع استغراقه في تأمّله ولو لحظة واحدة، وحتَّى إن فتحَ عينيه في تلك اللحظة ونظر إليها، ما كان له أن يعرف أن تلك السيدة البيضاء مثل ورق الرسم قبل الرسم، والأنيقة مثل ورق الرسم بعد تَمام الرسم، هي نفسها الملكة، التي قادته بئر مرحاضها إلى حيث يوجد الآن. كانت تلك مجرد حكاية

قديمة بالنسـبة له، حلم نسيه بمجرد أن استيقظ وانتبه وتنفَّس ودخل في الخواء الجليل، حيث لا شيء يسـتحق أكثر من ابتسـامة غافلة عن الدنيا بما فيها.

بمشهد ركوع الملكة ذلك كانت الجدّة تنهي حكاياتها، بينما تقاوم الحفيدة النعاس وفي رأسها ألف سؤالٍ وسؤال.


مخرج

هل نجوتُ أم غرقتُ؟ يبدو أنني كنتُ نائمًا في بطن السفينة عندما ضربتها العاصفة وتحطَّمتْ أمامَ شواطئكم ليلةَ أمس. تَخاطفَ الموجُ المسافرين ثُمَّ البَحَّارة وسمعتُ القبطان يصيح: «مَن ينجُ منكم، فليحكِ الحكاية». وقد هلكوا جميعًا، فهل نجوتُ أنا أم غرقت؟ وأي حكايةٍ كان يقصدها القبطان؟ سَبحتُ حتّى اليابسة وأفقتُ على أحلامكم تتجوّلُ عاريةً وساكتةً مِن حولي، كانت ودودةً معي فَدَلّتني بالإشـارة على موضع المـاء والطعام وتبدَّدت قبل طلوع النهار، ثُمَّ أتيتم أنتم بثيابكم وعُبوسكم وأسئلتكم الكثيرة عن حكايتي، فأي حكايةٍ تقصدون؟ وأنا أحبّ الكلام لكني لسـاني معقود، ولعلّ السر في مائكم الأحمر هذا، أو في تلك الثمار التي تشبه أَجِنَّةً مُنَمنمة مُغلَّفة بقشرةٍ شَفيفة. سوفَ أسمّي بلدكم هذا جزيرة الحكايات الخرافية، عسى أن يساعدني اختيار الاسم على تذكّر حكاية أو تلفيق أخرى. وحينَ شربتُ مِن مائكم الأحمر سمعتُه يغنّي في جَوفي كأنه يناغي رضيعًا؟ وتلك الثِمار التي تنمو على صورة الأَجنَّة، هل تتركونها في أرحامها الشفيفة حتَّى تسـقط وحدها، ثم تسـمعونها تبكي طَلَبًا لفَم الجائع، أم تقطفونها مُبكرًا

كَما فعلتُ وبهذا اقترفت ذنبًا؟ لا أحمل معي شيئًا، وابتلعَ البحرُ الحكاية، وذاكرتي مشوَّشة تمامًا، لكنّي أعرفُ كيف أدبّر أمري، ويمكنني أن ألفق لكم في كل ليلةٍ حكاية جديدة، تبدو كأنها حكايتي القديمة المنسية، وقد استعادت طريقها إلى لساني بفضل غناء الماء الأحمر في جوفي وبكاء الأجنَّة على الأغصان. لكنّ الحكايات ليست لي، بل لكم، وسوف يتعرَّف كل واحد منكم على حكايته فورَ أن يسمعها، وسيعرف أنّني سرقتُها من أحلامه العارية في الليل، وأنني لم أفعل إلَّا أن أعدتُها له وكأنَّها لي. فلماذا تبقون صامتين وعابسين هكذا؟ وهل يحدث أبدًا أن تلتقوا أنتم وأحلامكم في نفس الوقت والمكان؟ ولماذا عندكم السماءُ هُنا والأرض هُناك؟ أجيبوا، تكلَّموا أنتم ولو قليلًا، احكوا لي حكاية.